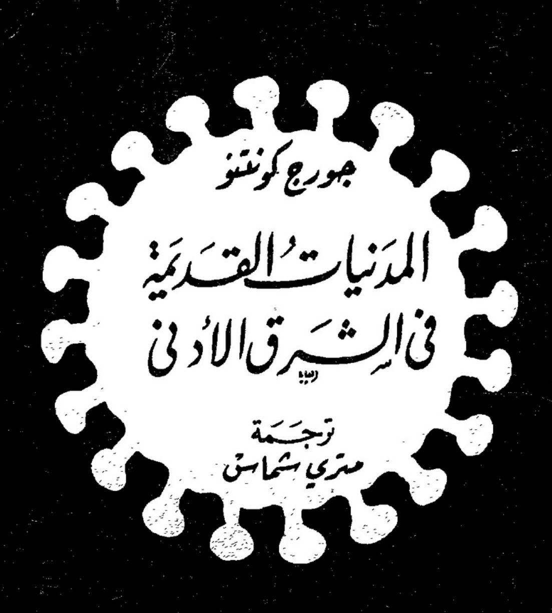


ماذا أعرف

المنشورات العربية

المدنيات القديمة في الشرق الادنى

Les civilisations anciennes du Proche - Orient

ماذا أعرف

٤

المدنيات القديمة في الشرق الأدنى

جورج كونتنو

ترجمة
متري شماس

المنشورات العربية

«Que Sais-je»
Presses universitaires de France

المنشورات العربية

المقدّمة

اضحى درس مدنيات الشرق الادنى ميسوراً، بفضل بعض الابحاث التمهيديّة التي لا بد لنا من تلخيص اهمها . ولكن تلك الدروس، بدأت تعطي ثمارها فقط منذ النصف الثاني من القرن الغابر ، عقب سلسلة من الحفريات الاثريّة، التي مكّنت العلماء من اكتشاف بضعة من الاثار والنصوص .

كان العالم الفرنسيّ بوتّا اول من مهّد الطريق لتلك الدروس، في خور ساباد، التي تقع في ضواحي نينوى . ومنذ سنة ١٨٤٢ راحت الحفريات تنتشر، رويداً رويداً، في منطقة الشرق الادنى، وخصوصاً في اشور وسومر عام ١٨٧٧ ، على يد العالم الفرنسي سارزيك . اما في ايران فقد تولّت بعثة من العلماء الفرنسيين التنقيب عن الآثار في منطقة شوشان منذ سنة ١٨٩٧ . ثم ان البعثات العلمية لا تني باحثة، منقبة عن الاثار، في فلسطين وسوريا، ومناطق آسيا الصغرى .

أما الحصيلة العلميّة لتلك الحفريات التي اشتركت فيها اكثر الشعوب الاوروبيّة والاميريكية فقد دونت في نشرات

تؤلف، دونما شك، مكتبة حافلة . ثم ان بعض المجلات الدورية مثل مجلة العلوم الأشورية ومجلة الكتاب المقدس ومجلتي سوريا وعلم العاديات تفسح المجال امام القارىء حتى يطّلع، عن كثب، على أهم الاكتشافات والابحاث .

والآثار، حصيلة الاحافير، حُملت إلى البلاد التي أسهمت في التنقيب عنها ؛ وبقي اليسير منها في البلد حيث اكتشفت . فالمجموعة القيّمة من آثار الشرق الادنى تستوي في متاحف اللوفر ولندن وبرلين، واسطنبول في اوروبا ؛ ومتحفي فيلدلفيا والمعهد الشرقي في الولايات المتحدة ؛ ومتاحف حلب واللاذقية وبيروت ودمشق وانقره وبغداد وطهران في الشرق. ويستطيع زائرو تلك المتاحف الاطلاع على محتوياتها بواسطة نشرات إما وجيزة وإما مفصلة .

واستطاع العلماء حل الغاز النصوص التي اكتشفوها ؛ وقد ترجم اكثرها إلى لغات عديدة ؛ ولا تخلو المؤلفات العلمية الرئيسية من ذكر اهمها [1] .

---

(١) يخيل الينا اننا قد سعينا الى التحدث عن كل شي مهم في هذا الكتيب المصدري. فحددنا لانفسنا، لضيق المجال ، الكتابة فقط عن التطورات الجديدة التي حدثت منذ عام ١٩٤٥

ففي سنة ١٩٤٥ كانت منطقة الشرق الادنى محدودة بالمناطق التي درست في هذا الكتيب؛ ومن ثم شملت في نظر البعض الشرق الاوسط بعد ان تباعد الشرق الادنى نحو الغرب. لذلك فضلنا ان نحافظ على التعريف القديم المنسجم انسجاماً تاماً مع معطيات علم الجغرافيا .

الفصل الأوّل

الجغرافيا

نطلق اسم الشرق الادنى في هذا الكتاب على المنطقة الغربية في آسيا، التي يحدها ايران من الشرق، والبحر الابيض المتوسط من الغرب، وحاجز جبال القفقاز من الشمال، والخليج الفارسي من الجنوب.

وسوف ندرس، في هذا الكتاب، المدنيات التي راحت تنمو، رويداً رويداً، في هذه البلاد المترامية الاطراف منذ اقدم العصور التي يُتاح لنا بلوغها. فنصل إلى حملة الاسكندر (القرن الرابع قبل الميلاد) التي بدلت وجه التاريخ وكرست سلطان الحضارات الجديدة التي تدين لها اوروبا بالكثير الكثير.

من البدهي ان تلك المدنيات الاسيوية، الزاخرة والمتنوعة، تستبعد عنها كل تنافر او تباين. فكلها تلتقي عند مصدر ثقافي واحد؛ وذلك ما سيساعدنا على كشف منطلقاتها الواحدة واظهار ميزات حضارة اسيوية غربية، قدّر لها — ترفدها حضارة مصر وجزر بحر ايجيه — ان تنفح الانسانية اولى خطوات تقدمها ورقيها قبل ان تنتقل الشعلة إلى أيدي الشعب اليوناني الجبار.

١ ـ بلاد ما بين النهرين .

لا شك أن منطقة ما بين النهرين، الرسيلة الثروة، المحظوظة بين جيرانها، هي مهد بزوغ الرقي الحضاري الذي شع على المنطقة كلها ؛ وهي الوسط الجغرافي ؛ ثم انها استطاعت تنمية ثرواتها الطبيعية .

نهران كبيران، دجلة والفرات، كونا بلاد ما بين النهرين، فهما ينبجسان من نبعين متقاربين في مرتفعات جبال ارمينية، جنوبي غربي جبال القفقاز . ويجريان مبتعدين ، في البدء، الواحد عن الآخر، فيشقان طريقهما خلال الجبال ثم يروحان يتقاربان حتى يمسي بعد احدهما عن الآخر، زهاء ثلاثين كيلومتراً، في مستوى مدينة بغداد . ثم يتباعدان من جديد ليلتقيا عند القرنة في شعبة واحدة « شط العرب » الذي يصب متشعباً في الخليج الفارسي على انحدار مئة واربعة وأربعين كيلومتراً . ولا شك ان تبدلاً قد شمل القسم الاسفل من مجرى النهرين على كرور الايام وتوالي الحقب . فاستباح التبدل، خصوصاً، المجرى الاسفل لكل من دجلة والفرات، ومرد ذلك إلى التربة الرملية واستواء رقعتها . أما القسم الأعلى من المجرى فما اكثر ما تتضخم مياهه عند ذوبان الثلوج، فتروي، في طريقها، الاراضي الزراعية الواسعة . وتبدأ فترة الفيضانات في اذار وتبلغ اوجها عند منتصف ايار . ومن ثم تروح المياه المتدفقة في تناقص مستمر

منذ حزيران حتى نهاية ايلول . ولكن ذلك الفيضان الذي تختلف فجاءاته الوخيمة ونتائجه المحزنة، عن فيضان النيل، استوجب تنظيمه وحصره ضمن سدود، راحت تمتاز بالاتقان والفاعلية في كل ملك وعهد . وسرعان ما انعدمت مضاره تماماً .

ولا شك أن ميزة دجلة والفرات ذات نتيجة أخرى ممتازة . فقد تكدست الرمال، بسبب وفرة الطمي، فتقلص الشاطىء، رويداً رويداً، في الخليج الفارسي . فبلغت المسافة التي خسرها البحر، منذ ثلاثة آلاف سنة، زهاء مئتي كيلومتر، في حسابات بعض العلماء . وهناك من يعتقد ان دجلة والفرات كانا يصبان، في الخليج الفارسي، في مصبين ظاهرين بارزين . ومن ثم لم يكن أي وجود لما ندعوه اليوم « شط العرب » . فان اول آثار الانصاب السومرية التي كانت على شبه نصف دائرة في وسط الصحراء، قامت حوالي البحيرات المكونة من دلتا النهرين .

وبرزت نظرية علمية حديثة تؤكد تكدس الرمال عند مصب النهرين وتكرس واقعاً قائماً منذ اقدم العصور حتى ايامنا هذه .

من الواضح أن محاصيل بلاد ما بين النهرين تأثرت إلى حد بعيد بتكوين ذلك الجزء من اراضيها ؛ فالقسم الاسفل بكامله، الممتد من مدينة هيْث العصرية، والذي يخصب

الخليج اراضيه، لا يحتوي اية ثروة باطنية ولا مقالع حجارة ولا أي عرق معدني . فالمناخ الذي تبلغ الحرارة فيه زهاء الخمسين درجة والممتد حتى مشارف بغداد، لا يفسح المجال للتنبّت والزراعة الا عقب ريّ متتابع وفير . لذلك جهد السكان في إقامة القنوات وتحسينها دوماً . وقد تدر الحبوب محاصيل خيالية تبعث البحبوحة والازدهار ويشكل النخيل الشجرة الوحيدة من جنوب البحيرة حتى ضواحي بغداد، فثمرها يصلح قوتاً دسماً للسكان وامسادها تستعمل في حاجات متنوعة مختلفة . ولكن خشبها الهش العديم التماسك لا يصلح لأعمال النجارة ابداً .

وكلما ارتقينا صوب الشمال من البحيرة وتسلقنا المنطقة الصخرية انقلبت التربة اوفر ثروة وغنى ؛ فموصل وكركوك اشتهرت بينابيع نفطها وقارها التي استطاع سكان المنطقة الافادة منها كل الافادة . ونلاحظ، من ثم، تقلص عدد اشجار النخيل، ويُدغدغ الانظار عشب ونبات واخضرار، وتبدو الكرمة، خصوصاً، في اماكن كثيرة .

أما الحيوانات التي كانت تعيش قديماً، في بلاد ما بين النهرين، فهي البقرة الحلوب والبقر الاسيوي الآبد والجاموس المستجلب من الاناضول = Anatolie والبقرة الهندية ذات السنام، إلى جانب الخراف المتعددة الاجناس كالخروف المتهدل الاذنين او المنفرج ما بين القرنين، او

ذي الزور العريض، الوفير الصوف . فقد ابانت الاثار المكتشفة وجود تلك الحيوانات إلى جانب اجناس اخرى، منها الاليفة والآبدة كالغزلان والظباء . وعرف سكان ما بين النهرين الخنزير واصطادوا ، احياناً كثيرة ، الخنازير البرية. وما اكثر ما ارغموا على اتقاء اخطار الاسود والفهود والحيات والحشرات الضارة مثل العقارب السامة . وحرست ماشيتهم كلاب من النوع المولوسي او سواه، كما أن كلاب الصيد السريعة العدو رافقتهم في قنصهم وصيدهم .

ولم يتيسر لبلاد ما بين النهرين الافادة من خدمات الخيل الا منذ بدء الالف الثاني قبل المسيح ؛ فقد استعاضوا عنها بالحمار البري الذي كثيراً ما كان يؤدي الخدمات المختلفة شبه الحصان تقريباً .

واختص السومريون لسكناهم الجزء الجنوبي من بلاد ما بين النهرين . فتمكنوا من سيطرة حضارتهم على البلاد كلها . ومن الثابت ان السومريين لم يسيطروا على سواهم بقوة الحديد والنار بل بالعلم والفكر والعقل . وابتنوا مدنهم في ضواحي الخليج وعلى جانبي مجرى النهرين او حول القنوات التي اصطنعوها سبلاً للعمران والازدهار . وكانت اهم تلك المدن إيريدو (ابو شارين) أورنيبّور (نيفر) لاغاش (تلّو) أومّا (دجوها) آداب (بسميا) لارسا (سنكاره) .

وفي اعلى الشمال كانت تمتد بلاد الاكاديين مع عاصمتها كيش (الحُمَيْر) وعلى مسافة قريبة منها بابل التي سيبرز اسمها فقط خلال الالف الثالث قبل المسيح، ثم سيبّار (أبو حبّا)، إشنونا (تل اسمر) . ومنذ بداية الالف الثاني ستضحي بلاد الاكاديين تحمل اسماً جديداً : بابل .

ويلي ذلك الجزء الذي يشكل وسط بحيرة النهرين بلاد سوبارو او سوبارتو التي سوف تضمحل لتؤلف اشور . وهكذا ستندثر الممالك كلها ولن يبقى منها الا اشور وبابل .

وتنتصب شرقي بلاد ما بين النهرين، على شكل نصف دائرة سلسلة جبال زغروس التي تمتد وراءها الهضبة الايرانية . كانت تسكن جبال زغروس شعوب اشتهرت بالغزو والسلب والتنقل، يدفعها إلى ذلك ما في السهول من خيرات وازدهار ؛ ومن هذه الشعوب نعرف قبائل اللولوبي والكسيين.

٢ — ايران .

في اقصى الجنوب، عند تخوم سهل ما بين النهرين، تبدأ بلاد انشان او أنزان التي كان سكان ما بين النهرين يطلقون عليها اسم العيلام «البلاد العالية». وتقع عاصمتها شوشان؛ عند منفذ الممرات التي تقود إلى الهضبة ؛ انها ملتقى حضارتين .

فتلك الهضبة حيث تتوالى وديان كثيرة متوازية، تحتضنها تعرجات الجبال، وتتوسطها صحراء كانت في ما مضى بحراً

داخلياً لا تزال آثاره بادية في مساحات الرمال المالحة التي تفصل جوانب ايران الرئيسية بحاجز محكم فعّال .

ولا وجود للانهار الكبيرة في إيران ؛ فطبيعة الارض الصخرية تحول دون خصبها . ولكن المناخ الصيفي المشابه تقريباً مناخ منطقة ما بين النهرين، يفسح المجال امام استنبات بعض المزروعات في المرتفعات السامقة حيث لا اثر لها في مناطق اخرى ؛ فهكذا يُزرع القطن في بقعة نهاوند Nehavend التي يناهز ارتفاعها عن سطح البحر الالف والثماني مئة متر . فلذلك يكثر حجر البناء ويتوفر بسهولة، ثم ان الغابات الجمة في الشمال ، في منطقة بحر قزوين، تبدو، حقاً، اجمل غابات في العالم .

ولم ينقطع الاتصال بين ايران وبين بلاد ما بين النهرين، حتى إن تاريخ البلدين يكوّن وحدة لزيزة لا تنفصم ؛ وعلى العكس فنحن لا نعرف شيئاً عن تاريخ الهضبة حتى اوائل سنوات الالف الاول قبل عصرنا اي بعد أن احتله الماديون في الشمال (عاصمتهم اكباتان، حمدان في ايامنا) والفرس في الجنوب (عاصمتهم باسركاد، برسبوليس وسور) .

٣ ـ سوريا العليا وكنعان .

اذا عدنا إلى بلاد ما بين النهرين، وجدنا غربي تلك المنطقة صحراء سوريا الكبرى التي تفصل ما بينها وبين

الشاطىء ؛ فالمواصلات الطبيعية يؤمنها صعود مجرى الفرات بواسطة تل – حريري ، Tell-Hariri ماري القديمة ، والانحدار على طول الجزء الساحلي المحيط بالبحر الابيض المتوسط ؛ فقوس الدائرة هذا اطلق عليه اسم « الهلال الخصيب » . ومن الاكيد ان عرضه وكثافة اخصابه، كانا باديَي الاختلاف على توالي الفصول ؛ ومن الثابت ان الهلال الخصيب لم يخيب ظن الناس به، واصبح سبيل المواصلات الامين والوحيد بين الاراضي السعيدة التي يحيطها ايران من الشرق والاناضول، إلى حدٍ ما، من الشمال الغربي .

لو تركنا مجرى الفرات الاعلى لنذهب صوب الغرب في اتجاه البحر الابيض المتوسط، نضحي، عفوياً، في سوريا العليا التي كانت تؤلف ، في غابر الايام ، بلاد الاموريين Amurren بمدنها الرئيسيّة حلب وقرقميش (جرابلس) الواقعة على ضفة الفرات ، وموقع زند جيرلي عاصمة مملكة سمال Samal .

وعندما نبلغ جوار خليج الاسكندرون . بعد أن نكون قد اجتزنا جبال الامانوس، ينفتح امامنا طريقان ؛ طريق الشمال توصلنا إلى الاناضول بواسطة معابر خلال جبال طوروس ؛ وطريق الجنوب التي تصل إلى بلاد كنعان وتجتازها، تطوف بها امواج البحر الابيض المتوسط ويتوسطها نهر العاصي والحواجز التي تؤلف سلسلة جبال لبنان . وبين

الطريقين تمتد سوريا التي وهبت اخصب تربة في الشرق. والساحل يتكون من تتابع مرافىء او ملاجىء طبيعية تحميها جبال تصل احياناً إلى البحر فتقسم المناطق وتحدّها.

احتل الفينيقيون شمالي بلاد كنعان بدءاً من اللاذقية، اما الجزء الجنوبي فقد كان موطن الفلسطينيين في الالف الثاني قبل الميلاد.

٤ ـ آسيا الصغرى.

لو رجعنا إلى نقطة انطلاقنا وسلكنا طريق الشمال، لا بد لنا من الوصول إلى الاناضول، بعد أن نكون قد اجتزنا جبال طوروس. ولا شك ان الاناضول على شبه كثير بايران لولا انفتاح احدى جهاته على البحر وبعض الانخفاض النسبي في مرتفعاته. وتتوسطه صحراء مالحة يجب الدوران حولها لاجتياز الهضبة من الغرب إلى الشرق لما يتخللها من النواتىء الصخرية والمسالك الوعرة الصعبة وهو بلاد السهول المتنوعة والمروج والمراعي والغابات، ذات التّربة الغنية بالحجارة والمعادن. ويفوق بلاد فارس غنى وثروات. وشاءت الأقدار ان يبقى في المرتبة الثانية بعد بلاد ما بين النهرين التي ازرتها عوامل كثيرة في انطلاقتها الرائعة فيسرت لها التربع على زعامة اسياء الغربية.

وتحتضن آسيا الصغرى مدناً ذات اهمية ونفوذ في القدم ؛ وهي من الشرق إلى الغرب : ملاتيا Malatia ، خانس Kannés القريبة من قيصرية الحالية، حاتوس (Hattous) عاصمة الحثّيين والتي تدعى اليوم بوخاز كُوي .

والطرق القديمة التي تصل العاصمة بالبلاد المجاورة معلمة بآثار كتابات حثية تزيّن صفحات الصخور، وهي الشاهد العيان على الدور الحضاري الذي لعبه الحثيون في آسيا الصغرى.

الفصل الثاني

شعوب آسيا الغربية القديمة

١ ــ اللغات و الكتابة .

سكنت آسيا الغربية القديمة ثلاثة شعوب : الاسيويون وقد استبان دورهم العظيم في السنين الغابرة الاخيرة ، والساميون والهنود ــ الاوروبيون . وسنظهر حالاً اهم انواع الشعوب التي سيتناولها درسنا و بحثنا . فالاسيويون تحدّر منهم السومريون ، والعيلاميون والحوريون ، ورواد الحثيين ؛ والساميون خرج منهم الاكاديون (الاشوريون والبابليون) والاراميون والفينيقيون والاسرائيليّون والعرب . اما الهنود ــ الاوروبيون فقد نسلوا الحثيين والماديين والفرس .

ثلاث لهجات اقتسمتها الشعوب الثلاثة التي سكنت هذه المنطقة المدعوة آسيا الغربية . ورغم بعض التباين في اللغات الثلاث فقد يبدو اساسها الموحد بوضوح وجلاء .

٢ ــ اللغات الاسيوية .

اللغات الاسيوية من الطراز الذي ندعوه متلازماً أو متلاحماً . فهي تنطلق من جذور فعلية لا تتغيّر وتشترك

في إيجاد الاسماء والافعال وتصريفها واعرابها بواسطة بادئات ولاحقات وحتى زوائد بسيطة، تكثر وتتوافر على قدر المعاني المطلوبة. وإوالية (Mécanisme) تلك اللغات التي لا نزال نجدها حتى الآن في بعض لهجات سكان جبال القفقاز بادية النقص، بعيدة كل البعد عما نجده في لغاتنا من الدقة والوضوح وصفاء التعبير عن الفكر. وليس في ذلك ما يمنع ان تكون تلك اللغات اول وسيلة من وسائل النطق والمعرفة في اسيا الغربيّة القديمة.

ولا شك أن أكثر تلك اللغات اهمية هي اللغة السومرية التي حلّت رموزها بعد اللغة السامية الاكادية بقليل. ولكن تفسيرها لا يزال يكتنفه بعض الغموض والابهام. فاول نصوص شرحت وحلت الغازها كتبت باللغة السومرية. ثم ما لبثت حتى اندحرت امام اللغة السامية الاكادية واقتُصِر استعمالها فقط على المراسم الدينية حتى شروق شمس الحضارة الاشورية — البابلية. واظهرت بعض الاثار نصوصاً سومرية كتبت بالحرف اليوناني، مما يدل على أن اللغة السومرية، كانت محكية ومكتوبة، في الحقبة اليونانية، رغم كونها لغة ميتة كاللاتينية واليونانية القديمة، في عصرنا الحاضر. ومن الثابت ان السومرية، مع ان انطلاقها كان سومر، قد انتشرت في منطقة ما بين النهرين كلها، لغة للعلم والدين، وذلك ما تؤكده قواميس تلك الحقبة.

وكانت اللغة الحثية، اخت السومرية، محكية في آسيا الصغرى، في وسط شبه الجزيرة ؛ وقد عرفنا منها بضعة اسماء علم كثيراً ما تبناها الهنود ـ الاوروبيون الذين اسسوا المملكة الحثية .

وتتحدر من ذات النبع اللغة الحورية التي نملك منها جملة نصوص ؛ ومن أهم تلك النصوص الرسالة التي بعث بها ملك ميتاني (Mitanni) إلى الفرعون امينوفيس عندما زوجه ابنته ؛ فالملك يعدد كل الهدايا التي نفحها ابنته لمناسبة زواجها . وقد اكتشفت نصوص باللغة الحورية على الساحل السوري، في رأس شمرا، قرب مدينة اللاذقية ؛ وعبارات حورية كثيرة وجدت في نصوص اكادية في منطقة زغروس (كركوك) وفي بلاد كنعان (رسائل تل العمارنة).

ولا بد من ذكر لغة الدولة التي سكنت في منطقة بحيرة فان، وقد برهنت تلك اللغة عن مدى قوتها، بصمودها امام أشور حتى القرن الثامن قبل الميلاد . والغوطية لغة سكان جبال زغروس الذين استولوا على جزء من بلاد ما بين النهرين اكثر من مئة وعشرين سنة . وهناك ايضاً لغة الكسيين الذين سيطروا على منطقة دجلة والفرات، ولغة العيلاميين التي استعملها سكان العيلام (l'Elam) . فكل تلك اللغات اذا قورنت بالمصادر الاسيوية بان عليها التباين والتغاير . ولكن اللغة السومرية تستوعب الانواع الاشد

اختلافاً وتنافراً : نقوشاً تاريخية، رسائل، نصوصاً قانونية ومقطوعات ادبية استقى منها الاكاديون، وخصوصاً ادباً دينياً كتبت له الحياة ؛ فيما نلاحظ مدى فقر الحثية والكسية وهلهلة صمودهما . اما العيلامية فقد تمثلت بالنقوش التاريخية وتكريس الابنية والعقود والنصوص القانونية ؛ مما يميط اللثام عن لغة تفعمها الحيوية رغم مزاحمة اللغة الاكادية لها مزاحمة قاسية .

٣ ــ اللغات السامية والهند ــ الاوروبية .

تمتاز اللغات السامية بجذورها الفعلية المركبة من ثلاثة احرف ؛ فهي تخضع ، من جراء ذلك، لتعديلات وانعطافات داخلية توفّر كل ما نريده من معانٍ ومدلولات مختلفة . انها قريبة الشبه، في ايامنا، باللهجات العربية . ثم اننا نكتشف الكثير منها في القسم الغربي من آسيا، رغم تباين اهميتها. واولها الاكادية التي لم ترَ النور قبل السلالة الاكادية. وراحت من بعد، تذوب، شيئاً فشيئاً، في الاشورية والبابلية اللتين ترجع آخر النصوص المكتشفة منهما، إلى اوائل الحقبة المسيحية .

ومن الواضح أن الأدب الاكادي، بله نتفه المكتشفة، يُعد من أجمل الاداب وارقاها . فهو يحيط بشمول، بالنقوش التاريخية والعلمية والمقطوعات الادبية والرسائل

والعقود والنصوص الدينية وسواها من المواضيع المتعددة، إلى جانب « قواميس » سوف نتكلم عنها . فكل تلك المعطيات تؤلف مجموعة فكرية من أجود ما لدينا، ولن يفوتنا ان نضع بين يدي القارىء الامثلة عنها .

كان ترحّل الاراميين السبب الرئيسي في ضياع ادابهم في عهد الاشوريين والبابليين ؛ فانقضى عليهم وقت طويل جداً قبل ان تتمكن السريانية من ابرازهم إلى الحياة . ولا ضير على السريانية اذا لم تتحول اللغة الرسمية اذ يكفيها فخراً وشرفاً انها اضحت اللغة التي يتخاطب بها الشعب كله .

وتمتد، غرباً، على طول الساحل السوري، منطقة اللغة الكنعانية إلى جانب الفينيقية والعبرية . ولم يكن ، في حوزتنا، من الاولى، حتى السنوات الاخيرة، سوى عدد يسير من النصوص، اهمها النقوش المكتشفة على قبري ملكين من صيدا ؛ تبنت واشمونصّر (القرن الخامس قبل الميلاد) . ثم نقوش من بضعة اسطر على تابوت حيرام، ملك جبيل ومعاصر رعمسيس الثاني (القرن الثامن قبل الميلاد) . ولكن رأس شمرا، انقلبت منذ سنة ١٩٢٩، منطلقاً لإكتشاف نصوص كثيرة ملحمية ودينية، بعضها يمت بصلة إلى الحياة العامة ويعود إلى النصف الاول من القرن الرابع عشر، قبل المسيح، على اقل تقدير . فالترجمات الاولى، لتلك النصوص الصعبة، رغم مشقة مقابلتها، اتاحت لنا التعرف

على أدب جم يعبّر عن التقاليد الفنيقية في لغة قريبة الشبه جداً بالعبرية .

ومن ثم فالعبرية، التي احتفظت بحيويتها ونشاطها، بينما امحت معالم غيرها من اللغات السامية، هي اللغة التي كتب بها الكتاب المقدس، في حقب مختلفة . فقد كانت واللغة العربية اساساً لفك الغاز اللغات السامية الاخرى . ولا جرم ان بعض الاجزاء من الكتاب المقدس قد كتبت باللغة الآرامية .

أما لغات الجزيرة العربية القديمة فلم يبق لنا منها الا النزر الزهيد من النقوش ؛ ولكن الحبشية القديمة، على العكس، ابرزت لنا ادباً غنياً متشعباً ؛ ولن نتوقف عند درسه، فهو لا يشكل جزءاً من كتابنا هذا .

وقد تمثلت اللغات الهند — اوروبية، التي نسلت لغات اوروبا الحديثة (الفرنسية، الالمانية، اليونانية الحديثة، ولا شك ان اختلاف المحتد الواحد ظاهر التباين) باللغة الفارسية القديمة لغة الاخمنيديين الرسمية التي سجلوا بها نقوشهم التاريخية ، وبالعبارات الهند — اوروبية المتنشرة في اللغات الاوروبية الحديثة التي ذكرناها آنفاً . ولكن القضية تختلف تمام الاختلاف بالنسبة للحثية ؛ فهيكلها وضمائرها وصرفها ونحوها لا تتغاير واللغات الهند — اوروبية، مما يثبت اصلها الاسيوي في كل ما وصلنا منها .

٤ ـ حل رموز الخط .

ان فك رموز الخطوط المسمارية الذي ابتدأ العمل به منذ سنة ١٨٠٢، لم ينجز الا في منتصف القرن الماضي . ومن البديهي ان تنطلق خطوتنا الاولى من النقوش التي تركها لنا داريوس الاول (٥٢١ ـ ٤٨٥)، ملك الفرس، على صخور بهيستون الواقعة على الطريق الذاهبة من كيرمنشاه إلى عبدان . ويكفي تفحص سريع ، ليثبت ان تلك النقوش قد حفرت على النمط المسماري . وفت نماذج ثلاثة من الخطوط . وكان حل رموز الخط المصري قد تخطى ضرورة نقش مزدوج اللغة، اي مكتوب مرتين : بلغة معروفة وبلغة غير معروفة . ونلاحظ هنا ان نموذجين من النماذج الثلاثة سجلا بلغة غير معروفة ؛ فالاول الذي يعتمد العدد القليل من الاشارات كان قد كشف النقاب عن اسراره وخصائصه . وازاء نقوش كهذه، مصدرها فارس، سلك العلماء سبيل التلمّس ؛ فافترضوا انفسهم في حضرة الملوك الاخمنيديين وحاولوا ان يستدلوا على اسمائهم بموجب القواعد التقليدية من نماذج وتسلسل . وتكللت التجربة بالنجاح بعد ان أدرك تمام الادراك ان اشارات الحروف الصوتية يمكن ان تتغاير وتختلف وفقاً للحرف الساكن الذي يرافقها، (نحن امام نموذج نصف مقطعي، نصف القبائي) انذاك اصبح من الميسور قراءة النصوص ؛

فاستلزم الاستعانة بالفارسية القديمة (الزنْد) لترجمتها وتفسيرها. لقد اضحى عندنا، اذن، في مدينة بهيستون لغتان، فارسية واخرى مزدوجة غير معروفة. وكان النموذج الثاني، الخط الذي عرف بالشوشاني المتحدر من الفئة الاسيوية، كما قدمنا سابقاً.

ولكن النموذج الثالث هل هو الاكادية؟ من الثابت أن عدد الحروف فيه اكثر بكثير مما هي عليه في النموذج الثاني. وشملت التجربة اسماء الملوك المسجلة في النقوش الفارسية؛ ولم يستشعر العلماء نشوة الفوز الا عندما ادركوا أن اللفظة، في هذا النمط من الخط، لربما تمثلت في عدد معلوم من المقاطع او باشارة واحدة تنوب عنها، وبعد ان ادركوا ايضاً، ان اشارة واحدة من الممكن ان تُقرأ باساليب مختلفة. ولما استبانت هذه اللغة سامية، اضحت مقابلتها أكثر سهولة، باللغات السامية المعروفة: العبرية، العربية، السريانية وحتى الحبشية القديمة. ونلاحظ ان الاكاديين، كلما دعت الضرورة إلى قراءة النصوص السومرية التي اتبع في كتابتها نفس النموذج، يوفرون للأثريين رفداً لا غنى عنه. فقد عمدوا إلى وضع لوائح بالمفردات والالفاظ عندما استشعروا ان السومرية انقلبت لغة ميتة. لذلك سهلت تفاسير النصوص وهان شرحها. ولا بد لنا من الاقرار بان نماذج اللغات الاسيوية تفتقر إلى دقة اللغات السامية. وهنا يكمن

السبب الرئيسي الذي حمل الاكاديين على تبني اللغة السومرية والاشاحة، تماماً، عن لغتهم.

وهناك نوع آخر من الخطوط، شمل بانتشاره فقط جزءاً من آسيا الصغرى وسوريا العليا، وهو ما يسمى بالخط الهيروغليفي الحثي الذي لم يتخط الطور الرسمي، والقريب الشبة جداً بالخطوط الرسمية المصرية ...

٥ ــ الخط البدائي.

لا وجود الا لنوع واحد من الخط البدائي، وهو الذي يمثل الاشياء؛ انه النوع الرسمي. وكل الشعوب التي توصل العلم إلى اكتشاف اثارها، قد مرت في طور الخط البدائي، من المصريين حتى الصينيين. فعند المصريين حافظت رسوم الاشياء على نفس النمط تقريباً؛ وعند سواهم طرأ عليها التبديل حتى غايرت تماماً اصلها واساسها، كما نلاحظ عند الصينيين وخصوصاً عند سكان ما بين النهرين.

من السهل جداً ان نتعرف إلى الاسباب التي حدت بسكان ما بين النهرين إلى تطوير الخط. فاوجه تلك الاسباب مردها إلى المادة التي استعانوا بها على الكتابة والنقش. فقد استعملوا، للنقوش العادية، الفخار المصفّى، وصنعوا منه اللوحات الصغيرة وراحوا يرسمون عليه الاشارات والرموز بواسطة محراف من قصب. ثم يضعون تلك اللوحات في الشمس او

فوق النار لتجف، وتنقلب، من ثم، في قساوة القرميد مما يجعلها في مأمن من التلف والتشويه. ولكن الرسم العميق على الفخار، بمحراف مروس، كثيراً ما يسبب التبقع واختلاط الرسوم؛ اما اذا استعمل طرف المحراف عموديا، فقد يضحي الرسم واضحاً جلياً، رغم سهولة تحوّله إلى مجموعة من الخطوط المنكسرة. وذلك ما جعل خط سكان ما بين النهرين يبدو شبه مسامير وزوايا متوالية ولهذا اطلق عليه اسم الخط المسماري.

وسيطر الخط المسماري على بلاد ما بين النهرين وعلى جميع مناطق آسيا الغربية حتى منتصف الالف الثاني قبل الميلاد. ثم راح ينهزم رويداً رويداً امام النموذج الجديد: الالفباء.

لا جرم أن السومريين عندما نقشوا رسومهم، كانوا يقرأونها بموجب الرسم الذي تمثله؛ كانوا يرسمون قدماً ويقرأونها Du التي تعني القدم؛ ولكن تلك الطريقة جعلتهم يضاعفون الاشارات والرسوم إلى ما لا نهاية له، دون ان يستطيعوا تسجيل الانعطافات الفعلية او الاسمية؛ وسرعان ما تبين لهم ان الالفاظ مكونة من مقاطع، مما جعلهم يخصصون لكل رسم قيمته المقطعية. فرسم القدم حافظ على مدلول القدم وكذلك مقطع Du. وهكذا اصبح لديهم رسوماً للمقاطع مؤلفة من حروف صوتية وساكنة.

وعندما بدأ الساميون يتعاملون مع السومريين تبنوا حالاً نماذج خطوطهم ؛ ومن البديهي انهم سموا الرسوم حسب ما اعتادوا ان يسموها في لغتهم . فقد كان علامة النجم Lu : Etoile بالفرنسية ، Star بالانكليزية ، Stern بالالمانية) . وهكذا سهل تطبيق النموذج على اللغات المختلفة وذلك ما حصل عند العيلاميين والحوريين والحثيين وسواهم .

٦ ــ الابجدية (الالفباء)

استطاع الخط المسماري ان يحتفظ بالبقاء حتّى العصر المسيحي رغم ما كان يعتوره من التعقيد الغريب العجيب ؛ ولا بد لذلك من شرح وتفسير . فإيجاد الالفباء لا يعني فقط تكوين عدد محدود من الاشارات والرموز ؛ فالتقدم ينطلق من ذلك واقع بأن المقطع مؤلف من اصوات بسيطة، ويجب التمكّن من عزلها . فالامر الذي يبدو لنا، لأول وهلة، عادياً ليس الا اكتشافاً حقيقياً رائعاً جداً . وسكان ما بين النهرين، كما قدمنا، استطاعوا ان يهتدوا إلى المقاطع ويعزلوها في الكلمات ؛ وعرفوا كيف يميزون بعض الاحرف الساكنة ... فهذا الاكتشاف الذي هيأ لعدد كبير من الشعب استعمال الخط، بعد أن كان مقتصراً على فئة الكتاب والعلماء، قد رأى النور على الساحل السوري ؛ فهناك وجد علماء الاثار النماذج الاولى من الخط .

اكتشفت الالفباء الاولى في نصوص رأس شمرا ؛ ورسمت على صفائح من الفخار على نسق الخط المسماري الذي تتحدر منه ؛ فهذه النصوص المكتشفة في حفريات القصر تعبّر كلها عن ضرورات الحياة العادية، ومنها الرسائل والحسابات والقوائم ؛ وجلها يمت بصلة وثيقة إلى الشعائر الدينية . وتعود صفائح رأس شمرا إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وتتألف الالفباء من ثمانية وعشرين رمزاً، عبر بعضها عن اصوات لا توجد في اللغات الهند — اوروبية ؛ وهي ليست الا تبسيطاً لبعض الاشارات المسمارية ؛ ثم اننا نلاحظ في هذه الالفباء وجود خط قصير يفصل بين الكلمات ، الامر الذي ساعد العلماء كثيراً في شروحاتهم وتفسيراتهم .

ويتحدر ايضاً من الخط المسماري ؛ في منطقة ما بين النهرين، الخط الفارسي الذي يستعمل رموزاً لا نستطيع ، اجمالاً ، أن نعتبرها الالفباء التي شاعت في منتصف الالف الاول قبل عصرنا .

ولا شك أن اكتشاف الصفائح الاولى من نموذج الخط الجديد، في قصر رأس شمرا، اغنى علماء الآثار عن مشاق المقابلة والتلمّس والحدس، فكل شيء اضحى واضحاً جلياً . فقد ظن بوير ودهورم، في القدس، انهما امام نصوص تستدعي التلمّس والتخمين، وكذلك فعل العالم فيرولود . فهذا الاخير، بعد أن اكتنه الالفباء، راح يباشر تفسير

وشرح النصوص . واقتصر تلمّسه فقط على السعي في العثور على كلمات سامية على تلك الصفائح او على اسلحة صنعت من البرونز سجلت عليها رموز يسيرة ، فاذا تلمّسه يتكلل بالنجاح التام . والجدير بالذكر ان بضعة شهور فقط انقضت قبل أن تنشر النصوص الاولى وتوضع القواعد العامة لنظام القراءة والتفسير .

وكان على تلك الالفباء ان تندثر لتحل محلها اخرى اكثر سهولة ويسراً، لانها تألفت خصيصاً لكي تكون في متناول مادة الخط التي تفرد بها سكان ما بين النهرين، على صفائح الفخار ؛ فالمحراف الضاغط على التراب الرخو يطبع ، من اول مرة ، كل مسمار تتألف منه الرموز ؛ ورسمه على الرق أو ورق البردي يتطلب لكل عملية خطوط المثلث الثلاثة التي تكون زاوية (مسمار) . ولكن الساحل السوري في استعماله الصفائح كان يهدف فقط إلى التقليد . وقد عرف الرق، نظير الاشوريين . ومن ثم ساعدت الصلات التجارية في انتشار ورق البردي الذي سهل الكتابة بالحبر ويسّر رسم الاشارات والرموز ، وكلها وسائل عرفتها واتقنتها الالفباء الفينيقية .

ولا جرم أن اهتدائنا إلى اساليب المعرفة قد تم على مراحل . فمنذ نهاية القرن الثامن عشر حاول الاب برتلماوس الفرنسي ان يكتشف على قطع من العملة الفينيقية اسماء

بعض المدن، واستطاع بذلك ان يتعرف إلى بضعة من حروف الالفباء الفينيقية . واكتشف الاثريون ايضاً، قاعدتي تمثال، في جزيرة مالطة، نقشت على كل واحدة منهما، نصوص بالحروف الفينيقية واليونانية . وانصب الاب برتلماوس، في متحف اللوفر، على درس نصوص القاعدتين واستطاع ، ترفده اليونانية والعبرية اخت الفينيقية، ان يفك رموز النقوش الفينيقية .

ومن الثابت أن الشعوب راحت تسعى ، منذ نصف الالف الثاني قبل عصرنا، إلى استنباط اساليب تيسير الالفباء وجعلها في متناول الجميع . فنقوش سيناء ورأس شمرا ليست الا برهاناً على ذلك . ولا شك ان كل نماذج الخطوط والحروف قد تقلّص نفوذها واندثرت ولم تبق الايام الا على الالفباء الفينيقية التي اصبحت عالمية منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد . ومنها ولدت كل الالفباءات التي شاعت وخصوصاً تلك التي استعملها فينيقيو قرطاجة، والبونيك Punique الذي حافظ على التداول بها حتى بداية عصرنا .

ولا بد من الاقرار بأن الالفباء الفينيقية، رغم التقدم الحضاري الذي اوجدته، بقيت ناقصة بعض الشيء ؛ فقد افتقرت إلى وجود الحروف الساكنة ؛ لذلك لن يستطيع قراءتها الا من اتقنها وسبر اسرارها ؛ فالالفباء الفينيقية تشكل تقدماً ممتازاً في وجه صعوبات اللغة المسمارية

الاكادية ؛ ولكنها تبدو اقل تقدماً بالنسبة للقراءة والتخاطب اذ أن الاكادية كانت لها الحروف الساكنة .

ولكن اللغة الاكادية والخط المسماري المفسر لها، كانت لهما ثروة عجيبة فريدة . ومن الواضح ان سكان ما بين النهرين قد استعملوا ورق البردي والرق رغم عدم اكتشاف اي اثر لهما ؛ ولكن الصفائح الفخارية تعطينا الدليل الساطع على مدى انتشار الخط المسماري بله نقصه وشوائبه . وبرهاننا على ذلك نجده في الصفائح المكتشفة في تل العمارنة، في مصر، وهي تسجل مكاتبة بين الفرعون وبعض دول آسيا الغربية . فلقد درجت مصر على استعمال لغة منطقة ما بين النهرين وسجلت كتابتها بالخط المسماري .

الفصل الثالث

العبادة

١ ـ عبادة آسيا المشتركة .

نستطيع ان نرسم الخطوط الكبرى للعبادات الاسيوية انطلاقا من مصدر الحضارة الاسيوية الغربية السومري . فتلك العبادات مشتركة بين كل الشعوب التي قطنت تلك المنطقة من العالم .

وتتميز تلك العبادة بإقامة الشعائر لقوى الطبيعة الممثلة بزواج الهي يرمز إلى عناصر الاخصاب والامراع . وتجسد الالهة طوراً، هذه العناصر مجتمعة، وتارة تعكس بعضاً من مظاهرها ؛ ويرمز اليها احياناً بحبة القمح او بالكرمة، واحياناً بالاخضرار بوجه عام . وكثيراً ما عبد الناس في بعض المناطق اله المرتفعات والقمم واله العواصف والرياح والفيضانات ذات الخير والاحسان . وسيكون لطبيعة كل منطقة تأثير واضح على نوع الاله او الحيوان الذي سيعبد ويضفي صفاته عليها ؛ ففي البلدان التي تترقب هطول المطر لخصب الارض، سيكون المطر الاله الاكبر ؛ اما تلك التي تنتظر الفياضانات، فإله الفيضان هو الاله والسيد . وسيصبح

العجل اله المناطق حيث تكثر المروج، وسوف تطول قرونه في المناطق الوعرة الجبلية. اما الايل فهو، دونما شك، اله الغابات. ولن تمنع كل هذه الفوارق من التقاء الشعوب حول عناصر واحدة وعبادات مشتركة.

ونلاحظ، في المناطق جميعها، حيث انتشرت تلك الديانة، وجود إله شاب تنعكس فيه كل صفات الإله الاب الكبير. فالبحث الجاهد عن الاتحاد ساق إلى تكوينه من الزواج الرئيسي، وكثيراً ما يعتبر زوج او عشيق الإلاهة.

٢ ــ السومريون.

حصل اختلاط السومريين والساميين منذ بدء التاريخ حتى في ما يتعلق بالدين؛ فنحن لم نعد امام ديانة سومرية صرفة؛ فقد امتزجت بالسامية التي نجهل الكثير عنها. لذلك لا نستطيع ان نتحدث عن العبادات السومرية الا تلمساً وتكهناً. وليس امامنا الا مقابلة عبادة سومر مع جاراتها من البلدان الاسيوية (آسيا الصغرى) حتى يتهيأ لنا التعرف، نوعاً ما، على معتقدات سكان ما بين النهرين؛ كما يتحتم علينا تسليط الاضواء على البلدان المجاورة (الجزيرة العربية) لتبين الميزات الرئيسية للمعتقدات السامية. ومن البديهي ان ديانة الشعب الاسرائيلي، ذات الطبيعة الفريدة، لن تدخل في نطاق بحثنا وتحليلنا.

لا جرم أن السومريين، منذ البدء، مثلوا الهتهم باشكال انسانية ؛ فقد منحوهم صفات من شأنها اظهار شخصيتهم، حتى انهم توصلوا ان يمثلوا الهتهم منطلقين فقط من الشيء الذي يرمزون اليه. وتظهر لنا طبيعة اولئك الارباب الحقيقية من الاناشيد المخصّصة لهم، ومن الصفات المميزة لهم عند التضرع والصلاة او من اسماء الاشخاص الذين تلقبوا بهم تيمناً وتبركاً.

وهكذا نرى عند السومريين الاوائل، ظهور شخصية إينان، إلاهة الخصب والامراع التي تملك على نمو الاسرة البشرية وتكاثر المواشي والقطعان ؛ ولها بين رموزها ما يشبه عصاً مجدولة، دلالة على بناء الاكواخ ورمزاً إلى البيوت وزرائب المواشي. ويحمل الإله الاكبر بين يديه اغصاناً كثيرة الورق او زاهرة ؛ ويرمز اليه بصورة السنبلة. ومن ثم يضفى على الإلاهة صفات الاسد وعلى الإله صفات الثور، بينما الإله الشاب، الذي نتعرف فيه إلى تموز، تلصق به صفات العنزيات. وفي هذه الفترة بلغ تأثير الجزء الشمالي من سوريا مبلغاً كبيراً فسيطرت الهته على الهة الجزء الجنوبي. ولكن عوامل الخصب لا تني عرضة للتقلب والشحّة ؛ فالنباتات تموت في الشتاء ثم تولد من جديد في الربيع ؛ لذلك تخيلت الديانات الاسيوية موت اله النباتات سنويا، وولادته من جديد في بدء الربيع. ولما كان جفاف الصيف

هو الذي يصوح المزروعات وليس برد الشتاء وصقيعه فلقد هب الناس يفاضلون ويميزون بين شمس الربيع وشمس الصباح التي تبعث الدفء في حنايا الأرض، وشمس الظهيرة الثقيلة الوطأة والقاسية التي تحرق كل شيء وتعيث الاوبئة والامراض ؛ وكان نرجال اله الجحيم والطاعون في منطقة ما بين النهرين.

كانوا يحتفلون بموت الإله السنوي بإقامة الحفلات والاعياد فيعمّ الحداد البلاد كلها في عيدي رموزي — تموز وجيزايدا، وتنشد في كل مكان المراثي واناشيد النحيب. اما سوريا فكانت تقيم اعياد ادونيس الشهيرة. ويوقظ النحل، عند الحثيين، الإله تيليبينو النائم. وبقي الاكاديون يحافظون على التقليد دونما انتقاص او تبديل. وعبد البابليون مردوك إله الخصب، وكانت المعزقة احد رموزه. وهو يختفي كل عام فيسارع الكهان والشعب إلى الانتحاب على غيابه ولا يلبثون حتى يقيموا المباهج والاحتفالات من جديد عند ظهوره. ثم كانت الاعياد تعبير فرح وسرور بمناسبة اقتران الإله مردوك بإلاهة الخصب. ولا شك ان مناهج تلك الاعياد تذكرنا بما كان يقام في العصور الوسطى من طقوس للاحتفاء ببعض اعياد المسيحية.

وهناك غاية أخرى تكمن وراء هذه الاحتفالات وهي الاعتقاد بالتوافق الحميم بين السماء والأرض وتأثير كل

عمل ، على الأرض، في حمل آلهة السماء على الاستجابة . ومن هنا وجب الاحتفال باثمار الاله والالهة صوفيا حتى جسدياً،ويمثل الكهانذلك بموضوعية. لذلك نرى من واجبنا أن نجد في هذه الاعياد اساس البغاء المقدس، العادة المنتشرة في بلاد ما بين النهرين وسوريا وآسيا الصغرى .

الصلوات والاناشيد تفصح كلها عن طبائع الالهة الحيوية ؛ فالاعتقاد السائد انها تتحكم بالفيضانات وتأمر الينابيع ، وان اصل كل حياة منها ؛ وهناك ارباب ثانويون يتوارثون بعض صفات الالهة الكبار ؛ ولا يجوز لهذه الايضاحات ان تنشر الشوائب في مضامين فكرة الالوهة وتخفي بذلك واقعاً مهما ، ولا يجب ان يسوقنا تعدد الالهة إلى متاهات الخيال وخرافات الاوهام؛ فإن الالهة رغم كثرتها، وتباين صفاتها، تنطلق من مبدإ واحد واساس واحد . وفي مقدورنا ان نحصر عددها، كما حاول ، من قبل ، كتبة بلاد ما بين النهرين، كأنهم يعلموننا ان ذلك الإله هو، حقاً، غير ذاك؛ ويبدو الامر اوضح عند الحثيين حيث تتعدد ميزات الإله نفسه، اكثر منها عند سكان بلاد الرافدين .

ولما احتل الساميون بلاد السومريين ، حافظوا على انظمتهم وشرائعهم وابقوا على اللغة السومرية لغة مقدسة وليتورجية ؛ وتبنوا آلهتهم ، ونقلوا اسماءهم إلى لغتهم دون ان يتخلوا عن مفهوم الإله الذي افرغوه من جوهره بعد أن اطلقوا

عليه اسماً آخر. وهكذا تضاعف عدد الالهة المتغايرين ظاهريا المتوافقين ضمناً.

حينذاك بدأ حكم سلالة البابليين الاولى ؛ فهب رجال الدين إلى تنظيم فوضى الدين والآلهة ؛ فرتبوا الآلهة درجات درجات. فالكبار منهم هم آنو، إله السماء، أنليل - بيل، إله الارض. إنلي — إيا، إله المياه، وخصوصاً الهة اللجة التي كانوا يعتقدون ان الارض تطفو فوقها. ونرجال، إله الجحيم، ثم آلهة الكواكب: سين القمم، شاماش الشمس، إيشتار كوكب الزهرة، نينورتا إله الحرب، ومردوك الذي بوأه البابليون والاشوريون المكان الاول اضحى رب الارباب، ونابو سيد الاداب والفنون الجميلة إلى جانب اعداد وافرة من الآلهة الثانوية المتوارثين عن السومريين، وشياطين. إما للخير وإما للشر، يعتبرون انصاف آلهة.

ولا جرم أن مبادىء الخصب والامراع لا وجود لها لولا إيشتار، إنانا عند السومريين، التي جعلتها بعض النصوص زوجة لكثير من الآلهة بينما قالت عنها نصوص اخرى بانها «عشيقة الالهة». ويبدو واضحاً، في هذا التشابك المعقد، أن عبادة الكواكب خطت شوطاً بعيداً جداً، فكل الآلهة تمثلت بالنجوم والكواكب، بفضل الشعوب السامية.

٣ ــ الحثيون والحوريون .

تضم آسيا الصغرى، كما قدمنا، تحت اسم الحثيين، فئات مختلفة، اولها الاسيويون ورواد ــ الحثيين الذين نجهل كل شيء عن معتقداتهم ؛ والسائد أنهم كانوا تحت النير الاشوري في اواخر الالف الثالث، او تقريباً ، منذ حكم السلالة الاكادية. ولم تستطع التأثيرات السامية ان تبدل طبائعهم الاصلية وعاداتهم التي انتقلت إلى ديانات الحثيين، الهند ــ اوروبيين . وعبد رواد الحثيين الزوج التقليدي الاسيوي، آلهة الخصب والامراع ؛ ونلاحظ على اثارهم المكتشفة انهم عبدوا وثناً بشكل ثور ؛ فقد خلفت الامبراطورية الحثية الهند اوروبية اثراً من ذلك في آلاكا ـ هويوك يعبّر عن وجود قيام نوع من العبادة تفصح عن عقلية اسيويي آسيا الصغرى البدائيين. فليس لدينا، حقا، الا عبادة واحدة انتشرت في آسيا الغربية القديمة كلها، وبلاد ما بين النهرين وسوريا، وبين القبائل اللاسامية في فلسطين، وجاوزت حتى جزيرة كريت .

ولما خلفت الامبراطورية الحثية، رواد الحثيين، اصطبغت الديانة بصفات ابانت شخصيتها بوضوح . ففيما يتعذر علينا ان نميز بين العناصر الاسيوية والسامية في بلاد ما بين النهرين، تلك العناصر التي صهرت الدين في وحدة حميمة، نلاحظ عند الحثيين قيام حضارة من عناصر حافظت على

تباينها، مما يتيح لنا التعرف على ديانة اسيوية متمثلة بالإله الاكبر، والإلاهة الكبيرة والإله الابن.

ولكن الاستعارات وفيرة جداً اولا من بقية الاسيويين الذين نلمّ نوعاً ما بمعتقداتهم ثم من سكان منطقة ما بين النهرين الذين اضحى اشعاعهم، عامل الحضارة، ذو قوة لا حدود لها. وفي مقدورنا ان نكشف النقاب عن وجود آلهة السماء والارض والجحيم، والالهة الجدود الذين افسحوا المجال للشبان من الارباب؛ ومن السهل تنظيم جدول باسمائهم اعتماداً على النصوص الدينية وخصوصاً بالاتفاقات والاساليب الدبلماسية التي تدعوهم وتطلب عونهم وحمايتهم. انهم «الف إله حيّ» كما يذكرهم الكتاب؛ والثابت اننا نستطيع ان نحصي منهم حوالي السبع مئة.

ونجد في رأس البانتيون إلاهة مدينة آرينا، التي لم تحصر بعد في موضع، وروسيمو (مرادف الهيبت الحورية)؛ سيدة البلاد، التي يقدم لها الملك حساباً عن حكمه. والإله الاكبر المسيطر على الاجواء والشبيه جداً بالإله تيزوب الاسيوي؛ ويتسلح، نظيره، بالفأس والصاعقة ويرمز اليه بالثور؛ ولا شك ان آداد مثيله. وهو يعبد من مدينة إلى اخرى؛ ولا يُسيء تشعبه إلى وحدته الكاملة.

ومن ثم نرى الإله الشمس الذي يظهر وكأنه ابن الزواج السابق؛ ونعرف عنه ظواهر متنوعة كما في بلاد ما بين

النهرين . والابن الثاني للإله الاكبر تيليبينو؛ شبيه تموز الحثي، يسود الخصب والامراع على الارض . وهناك ايضاً فئة أخرى استعيرت من البانتيون الحوري ، نشاهد بينها تيزوب وهبيت وكوماربي إله التعاهد والقَسَم .

وهناك ايضاً آلهة اخرى متمثلة بآلهة بلاد ما بين النهرين (السومريين والاكاديين) وهي ذات شأن لا يستهان به : اليشتار، نيزابا الاهة الحبوب، انليل، نينورتا، هنغالو الخصب، إيشتارا، آلاّتو، الاهة الجحيم . ومن الاكيد ان الحثيين واكثر منهم سكان ما بين النهرين حاولوا، بجهد لا يستهان به ان يخلقوا بعض النظام في ذلك البانتيون المفرط الحيوية .

ولا بأس أن نأتي، دعماً للتأثير الهند-أوروبي، على ذكر، كمروزيبا من فلك تيليبينو، واسكازيبا وبيروا .

وغرابة بعض الخرافات تجعلها تتشابه وخرافات بلاد ما بين النهرين، والبرهان على ذلك ان تيليبينو يمثل تتابع الفصول، وكمروزيبا يهرع دوماً إلى حفظ الانسانية من الاوجاع ، والحية إيلّوينكا . ونستطيع ان نجمع ، الى هذه الخرافات، الترجمات الحثية للأساطير الرئيسية التي شاعت في بلاد ما بين النهرين .

بعد غياب حثي آسيا الصغرى عن مسرح التاريخ بقرون

كثيرة، حافظت المنطقة التي عاشوا بين ربوعها على المعتقدات الاسيوية. فقد دخلت، مضيق الدردنيل، قبائل جديدة هند ــ اوروبية وسكنت قلب آسيا الصغرى حوالي السنة الالف قبل المسيح. وكان القادمون الجدد، الفريجيون، اقل ثقافة من البلاد التي استوطنوها، ومع ذلك فرضوا عليها لغتهم ولكنهم استعاروا ديانتها ومعتقداتها بعد أن ادخلوا عليها تعديلاً طفيفاً ناصلاً. فقد عبدوا قوى الطبيعة الممثلة بالزواج الالهي التقليدي مع عناية ملحوظة بالاسرار وتثقيف الشعب حتى يتقن الطقوس. ومن ذلك نلاحظ بقاء الطقوس الاسيوية، نشيطة حية، في الديانة اليونانية ــ الرومانية، بعد أن درست آثار المجتمعات الاسيوية واصبحت مجرد ذكريات ناصلة على صفحات الايام.

٤ ــ فينيقية.

بقيت معرفتنا بالديانة الفينيقية حتى اكتشاف آثار رأس شمرا، محصورة باوسابيوس، من قيصرية (القرن الرابع قبل عصرنا) الذي استعان، في ابحاثه وتحليلاته، بكتابات فيلون الجبيلي، التي اندثرت واختفت كلها ولم يبق منها أي أثر. وكان فيلون قد اعتمد على نصوص سنشونياتون، كاهن مدينة بيروت في القرن الحادي عشر قبل الميلاد. وتشاء الصدف ان تضيع ايضاً تلك النصوص القيمة. ولا شك ان الواح رأس شمرا تضع بين ايدينا لائحة كاملة عن

عبادات فينيقية او على الاخص المنطقة الشمالية في منتصف الالف الثاني قبل عصرنا . والغريب في هذا المجتمع السامي، بقاء الدين اسيوياً، وهو أمر يدل على مدى احتفاظه بخصائصه. وسيد البانيتون هو إيل – داغون ذو السلطان على الانهار والامطار ؛ اما عشيرة البحر عشيقته فهي ترمز الى منابع الوسط البحري الحيوية . فهذا الزوج الرئيسي يفسح مجال النفوذ لبعل، الذي يعني اسمه المعلم والسيد، والمرادف لهداد السوري (آداد في بلاد ما بين النهرين) . هو صنو الإله الاكبر الاسيوي ؛ يملك على القمم، يحكم العواصف والامطار . وتقول الاساطير ان بعل لم يكن له معبد فيما كان لكل إله سواه معبده الخاص . ولكن إيل ارتضى ان يُفرد معبد لبعل؛ ومن هنا نلاحظ ان بعل كان إلها من الدرجة الثانية في بانتيون فينيقية . فهو الإله الاسيوي الممتاز الذي وجده الفينيقيون على الساحل ؛ وله أيضاً زوجته التي تدعى عشيرة دون نسبتها إلى البحر . وابن بعل يدعى عليان الذي يشترك ووالده في الصفات ذاتها، وهو شبيه في ذلك، بأبناء الالهة في الديانات الاسيوية . ولعليان شقيقة تدعى عنات، بتول محاربة، تتميز بذات طبائع وصفات اشتار اربيل، سيدة المعارك والحروب ؛ وتحتل عشتروت الدرجة الثانية من حيث الخصب بعد إشتار ؛ وبعد انقضاء فترة من الزمن ستلتحم عشتروت وعنات لتتوحدا في الإلاهة اتارغاتيس .

ويُرمز إلى توالي الفصول بالاعتراك الفصلي بين عليان

واخيه مُوْت الذي يتصف، غالباً، بصفات نرجال البابلي، شمس الظهيرة، المجفّف المخرّب، فيما هو، في الوقت نفسه، روح الحصاد وموسم رقاد الطبيعة الذي يليه ويتبعه. وتقول الاسطورة ان كل واحد من الاخوين يحكم على الارض بينما الاخر يقطن في الجحيم. وهناك اساطير اخرى من الديانة الفينيقية تنطلق من المصادر الزراعية (اساطير دانيل، ولادة «الآلهة اللطفاء»، الاتحاد الصوفي الذي تقوم به الآلهة المسيطرة على الحياة في الارض).

ولا جرم ان الديانة الفينيقية غزيرة الفائدة لكل محاولة في تقييم تطور العبادات. فلقد شاهدنا في بلاد ما بين النهرين الانصهار الحميمي للديانات الاسيوية والسامية، وعند الحثيين والحوريين التساوق الذي ابقى على ميزة الطقوس الاسيوية. وفي فينيقية، حيث يستبين لنا الدين في منتصف الطريق من التاريخ (منتصف الالف الثاني) نلاحظ اختلاطاً كما في بلاد ما بين النهرين، ولكنه واضح المعالم رغم التنافر المحتوم الذي يسيطر على ذوبان غير متكامل.

ومع ديانة فينيقية نخطو خطوة اخرى نحو التطور؛ ولا شك ان ذلك التطور لا يُعد اكتشافاً ولكنه تأثر إلى حد بعيد جداً بمعتقدات الحقبة اليونانية الرومانية. فذكرى الطقوس الاسيوية بقيت حيّة في شخصية ادونيس. ومن ثم نجد رواية الخليقة، المتوكئة في عناصرها، على رواية بلاد ما بين

النهرين وعلى الفلسفة اليونانية ؛ مرآة للحفاوة التي تنسب إلى كل شيء مكتشف، اسم مكتشفه. والثابت اننا بتنا نجد بعل جديداً يسود على كل مدينة او موقع هام ؛ فهناك بعل الشمال، وبعل لبنان، وبعل صور (ميلقرت) داغون، رشيف الساطع شبيه ابولون ، اشمون مرادف اسكليبيوس، إله صيدا، عشتروت سيدة بيروت وجبيل.

وتتضاعف صفات أدونيس، أدون اليوناني، الذي يعني السيد، وتزداد عبادته وطقوسه انتشاراً وامتداداً على الساحل السوري وفي مصر الهلينية. فهو دون منازع ، روح الحبوب والنباتات، المجروح جرحاً مميتاً خلال رحلة صيد، والذي بكته عشتروت بالدمع الهتون.

والحذر الذي كان يسيطر علينا في امكان وجود سنشونياتون، عندما كنا نعتمد فقط على ما خلفه اوزيب من كتابات، يبدو الان لا مبرر له، بعد ان اصبح بين ايدينا الجدول الكامل حول الديانة الفينيقية ؛ ولا ننسى ان ذلك الجدول يسبق وجود أوزيب باربعة قرون. ولكنه ، مع الاسف، لا يقول لنا شيئاً عن عبادات فينيقية الاولية البدائية ؛ رغم ان ذلك لا يقلل من اهميته في شيء.

٥ — العبرانيون.

اذا كان من النافل وصف ديانة اسرائيل كما تبرز من

الكتاب المقدس، في عهده القديم، فمن الفائدة ان نلقي الاضواء على نوع الاساس الذي انبثقت منه ونمت غليه: معتقدات الكنعانيين ومعتقدات العبرانيين قبل اقامتهم واستقرارهم في البلاد. فهوُلاء، الذين يعني اسمهم شعب «العالم الثاني» (من الفرات، الخط الرئيسي الفاصل لسكان ما بين النهرين) كانت لهم معتقدات القبيلة الكبيرة التي كانوا ينتمون اليها، قبيلة الاراميين. فمصدرهم أور الواقعة في منطقة ما بين النهرين، ويعبدون الإله سين والإله القمر؛ ولا تزال بقايا طقوسهم في منطقة «الهلال الخصيب» حيث تنقلوا، وخصوصاً في حران التي تقع في شمالي سوريا، والمعتقد انها تدعى في ايامنا هذه، مشرفية، ولكن عبادة سين ليست الوحيدة عند الاراميين؛ فقد عبدوا ايضاً، خصوصاً الذين لم يهاجروا منهم، الإله هداد؛ وقد مرّ بنا أن الإله هداد السوري (آداد عند سكان ما بين النهرين) شبيه جداً ومرادف لتيزوب الحوريين.

كانت ارض كنعان، عند انتقال سبط ابراهيم، في حقبة السلالة البابلية الاولى، مسكناً لشعوب عرفنا اسماءها من الكتاب المقدس، وهم العموريون، الفينيقيون الساميون، إلى جانب «ابناء هيْث» حسب الكتاب المقدس، اي الحثيين والحوريين.

وكانت الاماكن المقدسة كثيرة جداً وذات علامات

خاصة تتفرد بها مثل المعابد او القبور . ونعرف من اماكن العبادة تلك، الهيكل القائم في جيزر Geser بين الساحل واورشليم حيث نشاهد بقايا جدران قائمة لهياكل قديمة . ذلك هو الاطار او الجو الذي عاش فيه العبرانيون قبل أن يصبحوا شعب الله المختار .

٦ ــ الهياكل والكهان .

اسبغ سكان آسيا الغربية على معبوداتهم الاشكال البشرية . ومضى وقت طويل قبل أن يتفرد كل معبود بشكل الحيوان او الرمز الذي كان يمثله . وشابهت الهياكل، في الحقبة السومرية، بيوت الشعب . واضفى السومريون على آلهتهم صفاتهم واحتياجاتهم ومسكنتهم . فهم يمهرونهم الهبات والهدايا والهيكل النظيم المرتب الناصع ؛ فالارباب يملكون العربات والقوارب والموسيقيين وجمهرة من الكتاب يتولون العناية والسهر على هياكلهم .

وتتمتع الهياكل بالاستقلال التام في كل شيء ؛ فنشاهد فيها أولاً الكهان والكاهنات، المنتخبين والمثقفين منذ الفتوة، والصحيحي الاجساد والعقول ؛ وللبعض منهم وظائف خاصة : للتأكد من ارادة الآلهة (العرافون)، لطرد التأثيرات الشريرة (المعزمون) لبعث الهدوء والسرور في صدور الآلهة (المغنون) . وهناك ايضاً الحجاب ومقدمو

الذبائح والطهاة المقدسون الذين يتولون تحضير الطعام للآلهة . واخيراً الكتاب الذين ينسخون الاناشيد والطقوس ويحددون، غالبا، كيفية القيام بها .

والطقوس مهما تعددت وتشعبت، فقد كان يحتفل بها بدقة غريبة. فهناك الاغتسال، التبخير، اراقة الخمر والمحرقات إلى جانب الاناشيد والمزامير التي يعظم فيها المؤمن الإله او يرثي أمامه ضعفه ويندب سوء حظه . ولا شك ان ديانات آسيا الغربية تعلّق اهمية كبرى على الطقوس، فإن اي نقص في اتمامها من شأنه ان يجلب غضب الإله ؛ ودرج، على هذا النمط من الاعتقاد ايضاً، سكان منطقة ما بين النهرين والحثيون . فقد اوردت لنا بعض النصوص المكتشفة مدى الوقت الذي كان سكان ما بين النهرين يصرفونه في تحضير الصنوج التي تساعدهم على اكرام الإله، في احتفالاتهم الكثيرة ؛ اما الحثيون فقد جاوزوا الافراط في وضع النظم والترتيبات في تكريم آلهتهم، اذا ما رُزق احدهم مولوداً جديداً .

وهناك طقوس كثيرة كانت تقام بمناسبة بعض الاعياد المهمة، مثل عيد رأس السنة الذي كانت تكثر فيه التطوافات في المدن، او الاعياد التي كانوا يحتفون فيها بمنجزات الآلهة أو موتهم او بعثهم وخصوصاً آلهة الخصب والامراع .

٧ ــ الادب التسبيحي .

اقترح الدين تفسيراً للقضايا الهامة التي كانت تقلق وتحيّر الانسانية، سجله في قصائد طويلة انتشرت في كل الاوساط الرئيسية من بلاد الرافدين ومن ثم ترجمت وذاعت في المناطق المجاورة . ففي قصيدة الخلق، عمد البابليون إلى جمع الاساطير القديمة واظهروا تعاقب السلالات الالهية حتى تكوين درجات الخلائق والناس ؛ فمردوك الإله الاشجع من رصفائه، وسيد بابل ، اعلن الحرب على كاوس، فنتج من شطر جسده إلى جزءين، الارض وسقف السماء . اما عودة الخير فقد عللها سكان ما بين النهرين بنزول إشتار الى الجحيم، وباعتراك مُوت وعليان عند الفينيقيين، وبنوم تليبينو الشتوي عند الحثيين .

وكان تقليد الطوفان معروفاً عند السومريين والاكاديين دون الوقوف على العلل والاسباب، ولكن طيّ تقلبات وطوارىء مادية شبيهة بخلاص رجل عادل، كما روى ذلك الكتاب المقدس .

وروت ملحمة جيلكاميش تفسيراً للموت، نهاية كل مخلوق، تلك الملحمة التي ترجمتها كل الشعوب المجاورة لمنطقة ما بين النهرين ؛ فالبطل الذاهل رعباً امام موت انكيدو، رفيقه، يهرع إلى البحث عن النبتة التي تهب البقاء والخلود ؛ وبعد جهد نراه يهتدي اليها ولكن سرعان ما تسلب

منه فيفقدها . وهناك اسطورة آدابا وهي أيضاً تضع امام اعيننا تفسيراً مختلفاً وشرحاً معاكساً للجنس البشري المسكين . فآدابا الذي استدعته الآلهة قدم له طعام الخلود ؛ وكان من تعس طالعه ان رفضه، ولا نزال نتحمل نتائج خطإه وجهالته .

ولكن ذلك الموت الرعّاب المخيف، ما هو يا ترى ؟ ان ديانات آسيا الغربية تتفق كلها على تمثيل الجحيم مكاناً حزيناً، فاسد الهواء، كثير الغبار عاتماً (هي آفة الشرق) حيث تعيش الارواح حياة بطيئة مملة دون ان يسومها حراس الجحيم أي ضروب من ضروب القسوة والعنف ؛ وليس لها ، شراباً او طعاماً، الا التقادم والهدايا .

وعندما استطاع جيلكاميش ان يقنع الآلهة برجوع روح انكيدو، إلى الارض من جديد، سئل عن حالة الموتى في الجحيم وتحدث آنذاك عن المصير الحزين الذي خصص لهم.

أما البطل الذي استطاع ان يكوّن لنفسه اسماً تحيطه الأمجاد والبطولات والذي صرع في حلبات الاعترا كات والحروب فقد يؤذن لذويه ان يساعدوه ويقدموا له الماء المنعش البارد .

الفصل الرّابع

العلوم والآداب

١ ـ التصنيف .

علينا أن نتخلى عن وجهة نظرنا الغربية حتى نحيط بمستوى العلوم التي انتشرت في ربوع آسيا القديمة . فالعلم، في مفهومنا الغربي، هو البحث عن الانظمة التي تسيّر الاحداث، في سبيل تقدم مطرد دائم ؛ ولم تكن الحالة هكذا في آسيا القديمة؛ فالعلم ثمرة، إما مباشرة او غير مباشرة. للوحي الالهي بواسطة تلك المخلوقات الاسطورية ؛ ومن ثم فالإنسان لم يكتشف اي شيء يجوز له ان يفاخر به او يتحدث عنه . وفيما يعتمد منطقنا في تطوره على الاستقراء والاستنتاج نلاحظ المنطق الشرقي يتبع الاسلوب القياسي التماثلي .

ومن الثابت ان التجربة عنصر هام من عناصر العلم ؛ فهي تسويغ وتأييد لأفكارنا ونقطة انطلاق لإستدلال سابق . فالقسم الكبير من اكتشافاتنا منوط باتقان متتابع لوسائل التقصي المادية ؛ وفي انعدام كل ذلك لا بد وان يصاب عقلنا بالتخدر والخمول . ففي هذا الجو وتلك الظروف

وُجد العلم، في الشرق. واذا القينا نظرة على ما بلغه من تقدم وجب علينا الافتخار والانصاف والاعتزاز.

اتصف العلم في منطقة ما بين النهرين والبلاد المجاورة بالتصنيف والتبويب. ولم يتمكن رغم الجهود من تجاوز او تخطي تلك الصفات.

ففي العصور القديمة جداً كان العلم وقفاً على فئة محظوظة قليلة العدد هي جماعة الكتاب المنتمين إلى الكهان او تلاميذهم. فكان على الكاتب، منذ نعومة اظفاره ان يتمرن على فنون الكتابة ويتلقن العلم الذي سيكرس له حياته. فكنا نرى الى جانب من سيقنعون بان يكونوا فقط كتبة عاديين، كتبة الهياكل والجيش والحسابات والطب وسواهم. وقد اظهرت لنا مئات فروض الطلبة المكتشفة، ان المعلم كان يرسم على الصفائح، الرموز والعبارات التي كان على التلميذ ان يقلدها. ويستدل من مضمون تلك الفروض ان هدف العلم اللاشخصية والموضوعية؛ فلكل تفكير اسلوب انشاء يعلمه الناس كلهم؛ فالكاتب كان يجمع الحكم والامثال والعبارات الموجزة؛ وهو يدأب على الاحتفاظ بالاسلوب الانشائي اللاشخصي دونما أي جهد في خلق صفات جديدة او اساليب شخصية.

ويتصف الادب كله بهذا النوع من التفكير؛ فليس لدينا أي بحث يسجل كيفية تطور الفكر وما بلغه من رقي

وتقدم . والثابت، تقريباً، ان العلم كان يُلقن بالسماع أكثر منه بالقراءة أو بالمطالعة. ثم لم يكن العلم مباحاً للجميع فهو وقف على من هو أهل له فقط، من الاشراف والنبلاء ؛ لان العلم يُوحى به من الآلهة ، ولذلك كان الكهان يعتبرون انفسهم من الفئات المختارة الممتازة .

وكان لا بد من وجود بضعة من الصفائح يتذكر بها المعلم ما قد نسيه وتتيح له الاهتداء بسرعة على كل ما يجب أن يبقى مخفياً مستوراً عن عامة الشعب خصوصاً في الامور التي تمت بصلة إلى الدين . لذلك نرى وجود كل إله حاضراً في عامل من عوامل الطبيعة او وراء كل نتاج . فلكل اله شعار ورمز بين كواكب ونجوم السماء، أو الحيوانات والصخور ؛ فهو سيد لبعض ساعات النهار والفصول والالوان او يرمز اليه بشيء من الاشياء . ونستطيع اذن ان ندرك أن كل حركة وكل احتفال وكل اداة كانت لها الدلائل والمعاني والتفسيرات .

وتشاء الصدف، الزهيدة الحظ، ان تضع بين ايدينا نتفاً يسيرة، لا نستطيع ان نعوّل عليها ، الامر الذي ارغمنا على تبني الافتراضات المنطلقة فقط من المبادىء التصنيفية الموضوعية. فقد ظهرت لنا بعض العلوم بمظهر القوائم والجداول، مثل علم النباتات وعلم طبقات الارض وعلم الحيوان .

٢ ــ الرياضيات وعلم الفلك .

لا شك أن المسائل الحسابية المكتشفة، رغم اسلوبها التجريبي، تظهر لنا مدى التقدم والازدهار الذين بلغتهما الرياضيات . فالنظام العدّي كان مضاعفاً، عشرياً ؛ وقد ورثنا عن البابليين تقسيم الدائرة إلى ستين درجة ، ثم تقسيمها إلى ستين دقيقة، ثم تقسيم الدقيقة إلى ستين ثانية .

أما الفلكيون فلم يكن لهم من عدة الا بعض الآلات البدائية ؛ ومع ذلك استطاعوا ان يعرفوا او يحسبوا دورتي الكسوف والخسوف ؛ وقد خلفوا لنا لوائح المسافات بين النجوم، وهي تتصف بدقة لا يستهان بها .

ولكن تفكيرهم ونزعتهم إلى التصنيف والتبويب يظهران خصوصاً في الحقول التي تبدت لهم محض علمية فاعتبروها تنجيماً وسحراً .

٣ ــ التنجيم .

بعد أن اقرت شعوب آسيا الغربية القديمة مبدأي الرؤيا والايحاء لمعارفها وعلومها بات من الطبيعي ، في اعتقادها ، ان تؤمن بوجود الاتصال الدائم بين العالم السماوي والعالم الارضي ، وان الآلهة سوف يداومون على ابلاغ نواياهم وارادتهم للبشر . لذلك سيصبح التنجيم وسيلة الاعلام الوحيدة المرتكزة على الاساليب التقنية . وفي مقدورنا أن نتعرف على

طبيعة أي مكان في العالم بواسطة البرق والهاتف أو بواسطة الآلات التي تنبىء عن الطقس ؛ اما سكان ما بين النهرين فقد كانوا يستفسرون الآلهة . والجزء الكبير من تنجيمهم تبدى ساعياً إلى المعرفة السبقية ؛ واعتبروا علم الفلك سبيلاً إلى معرفة التبدلات والظواهر الجوية، ومثل مزارعي بلادنا فقد كانوا يراقبون انواع الغيوم ووضاءة النجوم والهالة التي تحيط بالكواكب ؛ لذلك وقفوا قسماً من علومهم على التنبوء باحوال الطقس والمناخ .

ورأوا في الأحلام ظاهرة مصدرها الواقع والحقيقة . فكثيراً ما كانت الآلهة تفصح عن اراداتها وتعاليمها بواسطة الاحلام. ولما كان الشعب يشك في تفسير بعض الاحلام، فقد هرع إلى الكهان والمنجمين يتطلب المزيد من التفسير .

كان تفسير الاحلام يحتلّ المرتبة الاولى، لاعتقادهم الراسخ بان الآلهة تخاطب الشعوب بواسطة الحلم ؛ فكل عرافة تستدعي الشروح، عند وسطاء ابيدور ودِلف .

ومن الثابت أن سكان آسيا الغربية القديمة قد خبروا كل انواع التنجيم وكل اساليب العرافة، مثل النذائر المتعلقة بالولادات الغير الطبيعية، انسانية كانت ام حيوانية . واحدى فوائد علم التنجيم ذاك هو ان شيشرون قد سجل في كتابه « التنجيم » قسماً، لا يستهان به، من العرافة البابلية . فالالتقاءات المفاجئة على الطرقات او في الاسفار، وطيران

العصافير، وحفيف اوراق الشجر يحركه الهواء، كلها ينابيع غزيرة للتفاؤل والتشاؤم، وقد اطلعتنا النصوص الحثية على ما كانوا يعلقون على طيران العصافير من الاهمية. ولا تخلو الحركات الغريزية عند النهوض من النوم من معان كثيرة ذات تأثير على الحياة والمستقبل. ولكن دراسة كبد الطيور المذبوحة شاعت اكثر من سواها وحملت الناس على التأثر بها وحتى الايمان الاعمى بما ينطلق عنها من دلائل وشروحات.

اذا كان الآلهة يبلغون تعاليمهم للبشر، فلا مانع، من ثم، أن تسجل اراداتهم على كبد احدى الذبائح المقدمة على هياكلهم؛ وتمكن الكهنة، بعد خبرة طويلة، ان يجدوا علة لكل شر وسبباً لكل مرض وشذوذ. ولم يكتفوا بكتابة الجداول المفصلة عن النذائر بل تخطوا ذلك بان رسموا على صفائح الفخار اشكال الكبد وسجلوا اسرار كل شكل بتفصيل واسهاب.

وشاع هذا الادب التنجيمي، ايضاً، في البلاد المجاورة وعرف، في بعضها، اهمية لا بأس بها. وزاد الناس ايماناً بالتنجيم والعرافة تعلق الحكام وذوي السلطان بهما. فكيف نجد مجالاً لاي شك في العرافة عندما نجد ان ملكاً مثل سرجون الأكادي يلمس حقيقة ما انبأه به العرافون والمنجمون.

ولا جرم أن نصوص التنجيم والعرافة تشكل اكبر واهم جزء من اداب سكان ما بين النهرين والحثيين.

٤ ــ السحر .

كان انتشار السحر في آسيا الغربية اقل امتداداً من تفشي التنجيم والعرافة، فقد اعتبر علماً طبيعياً يرضى عنه النظام . فهو يشكل مظاهرة عارمة لمحاربة الآبالسة الذين يهاجمون الانسانية، وللحد من طغيان السحرة الذين يسلطون الشياطين على غيرهم من البشر. وفي السحر ايضاً كما في التنجيم كان سكان ما بين النهرين يتبعون قوانين وانظمة صارمة اضحت جزءاً لا يتجزأ من متطلبات حياتهم .

فأول شأن أولاه سكان ما بين النهرين جل عنايتهم اضفاء اسم على كل شيء لتبقى له الحياة : لا وجود لاي شيء بدون اسم ؛ وما لا يحمل اسماً معيناً لا يني ضائعاً وعرضة للفناء . وقد اعتنق ذلك المبدأ، إلى جانب سكان ما بين النهرين، المصريون ايضاً . حتى انهم اعتقدوا ان الصلاة المنقوشة في اسفل تمثال احد الآلهة هي تضرع دائم سرمدي لذلك الإله .

وعلم السحر يطمح إلى تأليب قوى الطبيعة والآلهة في سبيل حماية المجتمعات والدفاع عن الافراد ضد شرور الآبالسة وأذية المشعوذين .

فالشياطين يسرحون ويمرحون حولنا ؛ وهم من اصل إلهي او نصف إلهي، وهناك فئة منهم يعتبر وجودها اتفاقاً وصدفة ؛ انها ارواح اولئك الذين ظلموا طيلة حياتهم على

الارض ؛ نساء لم يتزوجن او لقين حتفهن إبان الولادة، ضحايا الحوادث، الذين دفنوا بدون تابوت أو الذين حرموا من التقادم والهدايا، فهؤلاء كلهم انقلبوا شياطين يضطهدون الانسانية. واستيلاء الشياطين على احد الناس سهل جداً. فاذا غضب الإله على احد البشر اسلمه حالاً للشيطان. وهناك الساحر، الذي يستطيع، بكثرة احابيله، ان يفلت عنان احد شياطينه ويأمره بالاستيلاء على فريسته. لذلك سوف ينقلب السحر عند البابليين والحثيين وعند سكان اسيا الغربية سلاحاً ضرورياً يحد من تجبّر السحرة والشياطين. وذلك سبب لجوء الكهنة إلى تبديل الاسماء وتلاوة الصلوات لطرد الابالسة وإبعاد شرورهم والحيلولة دون مضارهم. وقد يلجأ الكاهن إلى غسل الخاطىء من خطيئته وحرق الاعشاب ليرغم الشياطين على الخروج من اجساد الناس.

ولا شك أن كل ذلك يدخل في نطاق السحر القانوني الدفاعي الذي نستطيع ان نطلع عليه في الصفائح المحفوظة في مكتبات الهياكل ؛ اما السحر الهجومي الضارّ فلم يبق منه أي أثر لنستطيع ان نعوّل عليه. ولكننا تمكنا من التعرف على طبيعته وخصائصه بالمقابلة والمقارنة.

٥ ــ الطب.

ان فن الشفاء يُعد افضل مَثَل للأساليب العلمية المختلفة التي تحدثنا عنها في الصفحات السابقة. فهؤلاء الشياطين

مضطهدو الانسان، الذين لمسنا مدى مضارهم، هم، في الغالب، شياطين مرضى ؛ اي أن المريض خاطىء، عاقبه الارباب او سمحوا بالاقتصاص منه. ولكن الشيء الذي يبدو على غاية من الاهمية هو معرفة نوع الخطيئة التي اقترفها المريض، وأي شيطان، من ثم، يجب ان يستولي عليه . وهنا يبدأ دور الطبيب، وهو غالباً الكاهن المعزّم المتضرع ، الذي يستعرض جدول الخطايا التي يجوز ان يكون المريض قد اقترف احداها. ولا شك ان الجدول طويل حافل؛ ورغم ذلك يجب ان تُعرف الخطيئة ويهتدى اليها ؛ فاذا بقيت مجهولة فلن يستطاع التضرع ولا الصلاة ولا ارغام الشيطان على الخروج من فريسته . ثم يُصار إلى اتباع نظام خاص لطرد الشيطان ؛ صلوات تستجدي رفد الارباب والقوات السماوية، وتلاوات يُطلب بواسطتها، من ابليس، الخروج والابتعاد . ويجب ان يسمح للشيطان بالدخول في مخلوق آخر غير فريسته وغالباً ما يكون ذلك المخلوق من حيوانات المحرقة مثل التيس او الخنزير الرضيع ؛ ويُعلن طارد الشيطان أن الحيوان هو المريض وان اعضاءه كلها مباحة . ويقول بعض العلماء ان قصبة بطول المريض تصلح لسكنى الشيطان المطرود، بدل الحيوان .

وبعد خروج الشيطان تقام الذبائح عربون المصالحة بين الإله والانسان وضمانة اجتناب السقوط من جديد . ولا جرم أن حفلات كهذه لم تكن في متناول الجميع ، لذلك كان

البعض يقومون بتمثيل حي لتلك الاحتفالات ليستطيع الشعب كله ان يحضرها .

ان الفارق بين شفاء مريض وبين طرد الشيطان العادي، هو وصف الدواء خلال تلاوة التعزيم . وهو، في البدء، عادي من حيث المظاهر والدلائل ؛ هدفه السيطرة على الشيطان : مواد ذات طابع سحري، محضرة في ساعات توافقية، من شأنها ان ترغم الشيطان على القرف والاشمئزاز إما بطعمها وإما برائحتها . ومن بعدُ، في الألف الاول قبل عصرنا، حصل تقدم ملحوظ ؛ تميزت الامراض وصنّفت دلائلها وعوارضها وبدأ التطبيب السحري يخلي المكان لوصف الدواء الضروري الناجع . زد على ذلك تشخيص المرض الذي انتشر عند الاشوريين (القرن السابع قبل المسيح). ولا شك ان الطب الابقراطي اعتمد كثيراً على المعطيات الاشورية ؛ وخصوصاً على نظرية الايام الصعبة .

٦ ــ الادب .

في درسنا الدين والمعتقدات، أتينا على ذكر اهم المؤلفات الادبية في بلاد ما بين النهرين وآسيا الصغرى وبلاد كنعان، لان النصوص في آسيا الغربية القديمة، تتعلق كلها بالدين وتصدر عنه، فكل الاساليب الادبية قد أدرجت في تلك النصوص . وهناك اكتشاف حديث جداً، مسرحه تل يدعى « ابو صلابخ » اماط اللثام عن وجود أدب سومري غني

جداً، منذ النصف الاول من الالف الثالث، يتألف من اناشيد للأرباب والآلهة والامثال الحكمية . وظهرت النصوص التاريخية الاولى حوالي سنة ٢٤٥٠ قبل الميلاد، في لاغاش ؛ وتفحص تلك النصوص يفسح امامنا مجال ترميم بناء التاريخ. ثم نجد، من بعد، ادب المراسلة الذي كثرت منه الشواهد والنماذج، وهو ليس مجرد رسائل حب او ثرثرة كما يظنه العصريون، ولكنه رسائل اعمال ومهام تتحدث عن المعاملات والاتفاقات، رسائل صادرة عن الحكام او عن وزرائهم، وكأنها أوامر أو بيانات او تقارير .

ومن بين تلك الرسائل، رسائل ماري، الملك حمورابي، تل العمارنة، السرجونيين، ومخفوظات اوغاريت .

وافسح الحثيون، إلى جانب النصوص العادية، المجال الهام لاتفاقات التحالف او الرضوخ والاذعان ؛ وبعضها، بما تمتاز به من الدقة والمضمون تذكر بالمعاهدات العصرية . وهي موضوعة ، كما اسلفنا ، تحت حماية الهة الحثيين مهما كان عددها ونوعها . ولا بدّ لنا من الاشارة إلى نصوص الحوريين، وخصوصاً رسالة الملك توشراتّا ؛ فاللغة الحورية تفتقر، إلى المراجع الضرورية التي تيسّر فك رموزها، رغم الرفد الذي نفحتنا به مخطوطات رأس شمرا .

وكان الجزء الشمالي من سوريا حيث نشأت المملكة الحثية موطن اللغة الارامية ؛ وبقي لنا منها بعض عبارات

الاهداء ونصوص مكتوبة على الاجداث مثال نقوش قبر الملك بنامّو الذي يصف حياة العالم الآخر فيراها اقل حزناً وبؤساً مما رآها سكان ما بين النهرين .

أما عند الفينيقيين فقد اضحت الصفائح ذات المضمون الديني كثيرة جداً بعد اكتشافات رأس شمرا . ولكن اهم نصوص بين ايدينا حتى الآن، نستطيع أن نعول عليها ونثق بها، هي تلك التي اكتشفت في قبور ملوك صيدون .

ونقرأ إلى جانب تعداد اعمالهم التقوية الصالحة، تضرعات للحصول على الراحة والطمأنينة في القبر؛ ويشددون على انهم دفنوا بدون أي كنز ثمين من شأنه ان يستثير طمع مدنسي القبور ويلعنون كل من تسول له نفسه امتهان قبورهم . ومع ذلك، تشاء الصدف، أن يدفن، احدهم، الملك تبنت، في تابوت جنرال مصري لا تزال النقوش الهيروغليفية بادية عليه !

ولكن مهما تغايرت اداب آسيا الغربية في تناولها المواضيع المختلفة المتشعبة، فلا شك ان الكتابات الاكادية لا تزال قريبة جداً من حدود العظمة . اذ قل ما نجد فيها الحماس البطولي الملحمي الذي نعثر عليه في النصوص السومرية .

الفصل الخامس

الفنون والتقنية

سيكرس هذا الفصل مرة أخرى مركز منطقة ما بين النهرين المتفوق وخصوصاً بلاد السومريين . اننا نلاحظ، دونما شك، التأثير الرئيسي والدائم الذي جعل الفن السومري يسيطر على البلاد المجاورة طيلة حقبة طويلة جداً خلال تطورها . حتى ان التقليد ذهب ببعض البلدان (اشور مثلا) إلى تبني اشكال من الفن تخالف وتفوق امكاناتها التقنية .

ان عناصر الفن في آسيا القديمة تنطلق غالباً، من الفن الشرقي الذي يضاد تماما فننا الغربي . فالفن الغربي، سليل الفن اليوناني، يمتاز بالواقعية ؛ فهو ميال إلى النحت . يمثل العالم المحسوس كما يبدو امامنا، يسعى إلى ادخال الحياة في هندسته بتنوع الاشكال الخارجية والتزيين النحتي الذي يضفيه . اما ميزة الفن الشرقي فهي الزخرفة ؛ فالنحت لا يشكل اهتمامه الرئيسي ؛ يمثل العالم الخارجي كما يتخيله لا كما يراه ؛ فهندسته، البسيطة الاشكال، ترتدي اللباس الفخم الذي إن لم يعطها حياة فهو يكسبها الثروة والغنى . فهذا الفن الممثل الآن بالفن الاسلامي، على اكمل وجه، قد كان منتشراً انتشاراً واسعاً جداً ، في غابر الزمن، في بعض

مناطق آسيا (منطقة قازان ومينوسنسك في سيبيريا الوسطى) . ومن ميزات الفن الشرقي الصارخة سعيه المتواصل إلى تعاكس الالوان عند رسمه الحجارة على الصفائح المعدنية .

وسنختار نموذجاً لنا الفن السومري والتطورات التي عرضت له وسيطرت على تطبيق تقنيته طيلة آلاف السنين في آسيا القديمة .

١ ـ الهندسة ـ الهياكل، القصور، القبور .

فرضت طبيعة الأرض السومرية مواد الهندسة ، ومن ثم، اشكالها : لا حجارة للبناء، ولا خشب الا خشب النخيل، وارض رشيحة، يغمرها غالباً فيضان الأنهر . فكانت النتيجة استعمال اللبن للبناء . ولجأوا احياناً كثيرة إلى شوي الطين نظراً لعدم توفر الخشب . فبعد ان يوضع الطين، ممزوجاً بشيء من القش، في قوالب، يترك في الهواء الطلق حتى ينشف ويجف . وعند جمعه يكفي ان يرطب بالماء حتى تلتحم الاجزاء كلها . وكانوا يبطنون الجدران بالقصب او بالزفت المتوفر في تلك المنطقة، لإكسابها القوة والمتانة. ولا شك أن بناء كهذا لن يدوم الا اذا كانت جدرانه سميكة متماسكة. ولما كانت النوافذ تشكل بعض الخطر على متانة الجدران فقد استعاضوا عنها بفجوات صغيرة مدورة ؛ وكثيراً ما اقتنعوا بالنور والهواء الذين يوفرهما فقط الباب الرئيسي .

وكانت تقام عواميد النخيل من جدار إلى آخر عند وجود سقف مسطح، الامر الذي يستدعي بناء وافر الطول محدود العرض. لان السومريين الذين كانوا قد عرفوا عواميد الخشب او الطوب لم يستعملوها داخل بيوتهم بل كانت لهم مجرد فواصل بين الغرف . واذا تألف البيت من طبقتين كان يصعد إلى الطبقة الثانية بواسطة سلم خارجية .

ونرى إلى جانب السقف المسطح السقف المقبب الذي يستدعي تصفيف اللبن على نمط الحرجة . ولكن سرعان ما تطور السقف المقبب تدريجياً على مدى الايام .

تمكنت بلاد الأشوريين حيث تكثر الحجارة والخشب من تخطي ذلك النمط الخاص في البناء . ولكن الاشوريين الذين لم يستعملوا الحجارة الا للنقش وتزيين القصور نسجوا على منوال السومريين . وكذلك فعل سكان آسيا الصغرى والفرس؛ حتى ان مرور الزمن جعل عماراتهم تخرب وتندثر .

واحتال السومريون على آفات الرطوبة، بتشييد منازلهم على ارض فرشت باللبن المشوي . وقلدهم في ذلك الاشوريون والحثيون .

ولا يخفى أن بيوت الشعب لم يراع في بنائها ما اشرنا اليه سابقاً. فقد كانت انماط اكواخ من القصب، سطحها من طين

مجفف، يُدخل اليها بواسطة باب من حصير منسوج ؛ وهي لن تعمّر طويلاً وسرعان ما يستعاض عنها بكوخ جديد يقام على انقاض سالفه . لذلك كانت المدن والقرى شبيهة بالتلال المصطنعة، التي كانت تدعى في بلاد ما بين النهرين « التل » وفي آسيا الصغرى « هويوك » وفي ايران « تيبي » .

ولكن الهياكل تبقى مرآة حيّة للفن الهندسي . فنحن، منذ أقدم العصور، أمام نموذجين : الحرم المقدس المخصص للآلهة مع فناء يقوم عليه بناء له مساحة ذلك الفناء ؛ وهذا النموذج المحبب إلى الساميين نشاهده في اورشليم في مسجد عمر الذي أقيم مكان هيكل سليمان، وفي مسجد مكة . اما النموذج الآخر من المعابد السومرية فهو ذو صفتين متغايرتين ؛ فهو تارة على نسق المعابد اليونانية. المدخل في وسط زاوية صغيرة من البناء ؛ وفي الجهة الأخرى قدس الاقداس، وطوراً، على العكس، نرى المدخل قائماً في احدى الزوايا الطويلة مما يتطلب، في الداخل، تبديلاً في الاتجاه، للوصول إلى الهيكل .

ثم ان كل معبد سومري هام يُضاف اليه برج ذو طبقات، ينقلب، من بعد، معبداً صغيراً، يُصعد اليه بواسطة سلم تمتد من سطح إلى آخر . وقد كشفت حفريات شو شان عن نموذج من البرونز، يعود إلى آخر الالف الثالث قبل عصرنا، يمثل معبداً صغيراً مع خزانات المياه والغيضة المحيطة

به . وكانوا يطلقون على نماذج تلك المعابد اسم زيكورات التي نجد منها في مدن أور وخور ساباد وتشيغا – زنبيل في جوار شوشان .

ولا جرم ان القصور ليست الا نموذجاً موسعاً عن البيوت العادية، سوى أن امام كل قصر فناء فسيح جداً امام الغرف المختلفة . وعلى ذلك النمط شيدت قصور الاكاديين والسومريين التي بقي لنا منهـا قصور اشنونا وماري وقصور الاشوريين ومنها نوزي وخورساباد، وقصور الايرانيين مشيدي برسيبولس حيث تطور الشكل نوعاً ما : غرف معمّدة وابنية محاطة بالعمد، ذات هندسة توخت البساطة . وفي آسيا الصغرى وسوريا العليا وبلاد الحثيين بنيت قصور ذات عرض أكثر، تسبق مداخلها قاعات مفتوحة تركزت سقوفها فوق الاعمدة ؛ ويظن بعض العلماء ان تلك القصور قد امتازت بوجود النوافذ في جدرانها .

ولا شك أن القبور « دار الخلود » قد طرأ على هندستها تطور متواصل . فالميت الذي عليه ان يحيا حياة طويلة بطيئة في العالم الثاني، يعوزه الكثير من التقادم، وسوف تكشف الحفريات عن انواع مختلفة من الثياب والحاجيات التي لا غنى عنها في حياته الجديدة . فقد درج السومريون على دفن موتاهم في قبور تحت منازلهم ؛ ثم راحوا يضعونهم في توابيت من خشب او حجر او لبن مشوي . وحذا

الحثيون حذو السومريين ؛ اما الفينيقيون فقد دفنوا موتاهم في السراديب (مدافن جبيل وصيدون). وكانت قبور العظماء والاشراف عند الفرس تنحت في الصخور. ومهما تعددت الاساليب الّتي لجأت اليها الشعوب لدفن موتاها، فقد لا نجد، مع الاسف، الا قبوراً نزرة لم تنتهك حرماتها. فقد راجت تجارة سلاّب المقابر في آسيا الغربية ومصر بسبب الكنوز الثمينة جداً الّتي كانت تودع في مدافن الكبار والعظماء. وتشاء الاقدار ان تبقى مدافن مدينة أور في منأى عن اللصوص والشذاذ، وتضحي نموذجاً عن الفن التجميلي الملكي في نصف الالف الثالث قبل الميلاد.

٢ — النحت.

رغم ما يزخر به النحت من فن وجمال فقد اعتبره الشرقيون من الكماليات؛ وذهب سومريو الحقب القديمة إلى نحت صور صلاّحهم وسعوا إلى تعليق رسومهم في المعابد والهياكل. ولكن فترة حكم السلالة الاكادية، دفعت النحت إلى الأمام، فظهرت، حينذاك، التماثيل الكبيرة الاحجام. وقد روضت لها الحجارة المتينة الصلبة. والشاهد على ذلك رأس حمورابي البابلي الذي تفرد بالجمال والعظمة؛ ولكن النحت الاشوري بقي على شيء من البدائية والتأخر، فيما تركت لنا المناطق الّتي سيطر عليها الحوريون والحثيون اشكالاً من النحت مفعمة بالرواء والقوة (رأس وجبّول

في متحف اللّوفر، تماثيل قرقميش وزندجرلي). وعمد نحاتو العصور القديمة إلى وضع حجارة مطعمة ملونة بدل العينين سعياً وراء بعث الحياة في النظر.

والحقيقة أن شعوب آسيا الغربية لم تصطدم بالعقبات التي تعترض الواقعية في ايامنا. ونلاحظ ان الفن الشرقي يبدو حراً طليقاً إذا قورن بفننا العصري؛ فهو يجهل الرتابة ويتفادى سلوك الطريق المختصرة؛ يرى الاشياء كما هي ويسعى إلى حمل المشاهد على رؤيتها كما هي تماما، ويستعين، لذلك، ببضعة قواعد لا يحيد عنها قيد شعرة. فهو يبرز عادة، رأس الانسان وفخذيه جانبياً ؛ والجسد في حركة التواء بطيء ؛ والابتعاد عن العري طبيعي ؛ ويجب ان يبين الصدر والكتفين مواجهة. (نصب بيل حرّان بيل اسطور في اسطنبول) ولكن العين تتمثّل، مواجهة، في الوجه وكذلك اللحية وبعض اجزاء الثياب.

واذا اقتضى الحال تصوير مشهد بكامله فقد يُصار إلى ابراز النقيشة شيئاً فشيئاً (تطواف اناء واركا من حقبة دجمت ـ نصْر، في بغداد) اويُصار إلى تجميع كل شيء حول الفكرة الرئيسية (لوحة اشورية تمثل طرد الشياطين من مجموعة دي كلير). والى جانب نصب الصقور، نجد ايضاً نُصب نارام سين، ملك أكاديا، اجدر مثال عن فن تلك الحقبة، ثم اخيراً شرعة حمورابي.

واكثر المجموعات قد نجدها في قصور نمرود، خور ساباد، نينوى وبرسيبوليس ، وهي نقوص ذات شأن عظيم بالنسبة لاحجامها ووفرتها، ولكنها تتصف ببعض البرودة اذا قارنا بينها وبين النقوش الفارسية حيث تتكاثر المواضيع حسب توافر المساحات .

ولعب نقش الجواهر دوراً مهماً في آسيا الغربية حيث كان كل مواطن يحمل على صدره صفيحة نقشت عليها بعض المشاهد التي تهمه شخصياً . وبسبب ميل هذه المجتمعات الشرقية إلى التشبث بالدين فقد كانت نقوش الصفائح على الصدر. تتعلق كلها بالامور الدينية ؛ وهي تفسّر لنا الكثير من العادات والمعتقدات . وإلا لما عرفنا عنها شيئاً. وهي تشير ايضاً إلى الحقبة التي راجت أو أهملت فيها تلك العادات او المعتقدات .

٣ ــ فن المعدن .

أنتج فن المعدن اسلحة وشفرات خناجر من نحاس ثم من برونز قبل ان يعرف الانسان نصل الزج ؛ وانتج فن المعدن ايضاً شفرات الفؤوس، ورؤوس الحراب، والاسهم . فمنذ القرن العاشر اصبحت الاسلحة كلها من حديد ولكن البرونز احتفظ بكثرة استعماله ؛ فقضية الندرة والثمن لا تزال تلعب دوراً لا بأس به؛ وعندما تصدت الفرق الفارسية

لليونانيين، زمن الحروب المادية، استعملت سهام البرونز والحديد، وكذلك الصوان وكرات للمقلاع من التّراب المقسّى والحجارة والمعدن.

ان أغلب المجوهرات، نظير الحلي في ايامنا، كانت ذات اساس من معدن وذهب للفئات الثّرية، وبرونز لباقي الطبقات وحتّى من الحديد الممزوج بالبرونز. فقد كشفت القبور الملكية في مدينة أور عن اثار ذات غنى فاحش، قليلاً ما يخطر على البال: انية من ذهب، عقود من ذهب مطعمة بالاحجار الكريمة؛ شعر مستعار صنع من خيوط الذهب. فقد كشفت منطقة، في ايران، تدعى لورستان، عن قبور شعوب من الفرسان، يعود تاريخ وجودهم إلى حوالي السنة الالف قبل الميلاد، درجوا على وضع الاسراج في تابوت الفارس الميت. لذلك وجدت في بعض تلك القبور الاحزمة والاسلحة والفؤوس والخناجر والآنية العادية.

وكان سكان ما بين النهرين قد عرفوا فن صنع التماثيل من المعدن، ولكنها تغاير فن ايامنا كل المغايرة اذا ما كبر حجم التمثال. فقد كانت الطريقة القديمة كما يلي: على هيكل من خشب، مطلي او غير مطلي بالزفت، متناسب الاجزاء قدر الامكان، يضع النحات صفائح من معدن محمّى يثبتها بالمسامير او ينزل جوانبها في فجوات خاصة. فالتمثال

يتطلب صنعه الى جانب المعدن الخشب والبرونز والذهب والفضة. واتبع السومريون نفس النمط في صنع تماثيلهم.

ولا بد لنا من ذكر المنتجات الشوشانية مثل استعراض المحاربين وهيكل المحرقات االمحاط بالافاعي الذي يظهر مدى تفوق ايران في ذلك النوع من الفن.

٤ ــ الرسم.

لقد كان الرسم مغموراً حتى الآن ؛ ولكن اكتشافات السنوات الاخيرة ابرزت الدور الكبير الذي تمتع به، خصوصاً في كل ما يتعلق بتزيين الابنية الفخمة. فهناك مجموعتان، اولاهما رسوم قصر ماري (الذي خربه حمورابي نحو السنة ١٧٦٠ قبل المسيح) حيث نرى مشاهد تقديم الذبائح ؛ أما المجموعة الثانية فهي في تل ــ احمر (تل برسيب قديما) حيث نلاحظ، في قصر اشوري يعود بنا إلى منتصف النصف الاول من الالف الاول قبل عصرنا، جمالات القصور الاشورية ومحا سنها : حياة الملوك، السلاح، القنص وبعض اشياء العبادة.

ومن بين الفنون الثانوية ذات الشأن لا بد لنا من التطرق إلى العاج الذي كان يزين الصناديق والاثاثات النفيسة المكتشفة في رأس شمرا ومجدّو (القرنين الرابع والثالث عشر قبل المسيح) ثم عثر عــلى الكثير منها في نمرود

الاشورية (القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد) وفي السامرة. فقد ابانت لنا تلك الاثار مدى تأثير التجارة التي كانت توحد اجزاء العالم القديم المختلفة . فهناك آثار كثيرة وجدت في مصر واليونان واشور اماطت اللثام عن قدرة الفنيين الفينيقيين او السوريين .

٥ ـ الترصيع .

لا يجوز لنا أن نغفل الكلام عن المركز المرموق الذي تبوأه فن الترصيع في الحقب الماضية . فقد رصعت العمد والجدران بمسامير الطوب الملونة الرؤوس منذ عهد أُوروك ولا تزال المتاحف تحتفظ بالخواتم الذهبية المرصعة بالحجارة الملونة التي وجدت في قبور ملوك مدينة أور . وسوف نجد تلك الطريقة في الترصيع في الفن الاوراراتي ومن بعد في فن البرابرة، عهد الغزو والفتوحات !

٦ ـ صناعة الخزف .

تحتل صناعة الخزف محلاً خاصاً في الاعمال الفنية التي ظهرت على مسرح الشرق الادنى القديم ؛ هي، احيانا، ذات مستوى فني رفيع ، وغالباً بدائية بسيطة جداً، ولكنها مهمة جداً لمعرفة تواريخ او تصنيف العمارات التي نجدها إلى جانبها . ولن نتوقف، في درسنا، الا عند صناعة الخزف

في أزمنة ما قبل التاريخ او الازمنة البدائية مثل رسوم سامرّا، تل حاف، أوبيد، جمدت نَصْر، شوشان، تل – إ – باكون قرب برسيبوليس. وسوف نلاحظ مدى انتشار صناعة الخزف الملونة في ايران، فيما كان سكان ما بين النهرين قد عدلوا عنها وتركوها جانباً.

ولا جرم ان الصرد الايراني، الذي بوشر باكتشاف اثاره منذ ثلاثين سنة فقط، قد اظهر مدى غنـــاه بصناعة الخزف. فحفريات تيبي – جيان قرب نيهافند، وتيبي – حسّار، جنوبي بحر قزوين، وتيبي – سيالك، عند ابواب قاشان، وفرت لنا نماذج عن نفس الحقبة تدل اشكالها وزينتها عن افساحها المجال الرحب لرسوم الحيوانات. وتجدر الاشارة إلى أن تلك الاثار ذات تنوع كثير.

اما الازدهار السومري الذي سيطر، كما يبدو، مع عصر أوروك، فقد حمل فن صناعة الخزف الملون على الاندثار، وبشر بقيام فن جديد تخطى حدود ايران الخارجية، وساعد على وجود عامل خارجي، لا يعبأ بصناعة الخزف التي تعتمد على الالوان.

الفصل السادس

الانظمة

العلاقات الخارجية

١ ــ ملكية ذات مصدر إلهي .

لا شك ان الملكية كانت الفضلى عند شعوب آسيا الغربية القديمة . فالملكيات تحكم بعض المدن ، ونستدل من عدد السلالات التي وصلت الينا على ان الكثير منها كان لوقت محدود وليس متتابعاً . فالملكية تقرّها الالهة ؛ والملوك يفاخرون بان الالهة قد اختارتهم للملك ، منذ مولدهم او منذ الحبل بهم . وسوف نلاحظ ، في زمن السلالة الاكادية وسلالة أور الثالثة ، أن الملوك سيصبحون آلهة ، عقب موتهم في البداية ، ومن ثم في حياتهم ؛ ولكن الملك لم يكن يسعى من وراء ذلك الا إلى التدليل على صحة اختياره ، للمُلك ، من الآلهة أنفسهم ؛ علة وجوده الوحيدة تنفيذ ارادة الارباب ، يعلن الحرب نزولاً عند رغبتهم واوامرهم لذلك نرى سرجون الثاني الاشوري (القرن الثامن قبل المسيح) يرسل إلى إله أشور ، خلال حملة عسكرية ، قصة انتصاره بشكل « بلاغ رسمي » .

عندما بدأ يتقلّص ظل الملكية راح النظام الامبراطوري، كما ادركته العصور الوسطى، يكبر حجماً وامتداداً. وادعى الفراعنة بانهم يفوقون باقي الملوك فارسلوا إلى حلفائهم من الكنعانيين الزيت المقدس؛ ونرى السلالات العظيمة في آسيا الغربية (سلالة آكاد، اور، ثم بابل واشور) تؤكد ذلك الادعاء في انظمتها وبروتوكولاتها: فهم ملوك «الشعوب كلها واقطار المسكونة الاربعة». فرسائل تل العمارنة، المتبادلة بين الفرعون امينوفيس الثالث والرابع وبين امراء آسيا، تعيد إلى الاذهان اساليب التقدم والنفوذ؛ واتصف الحثيون بالدقة الغريبة في كل ما يمت إلى الملوكية بصلة: فقد رفض المستشارون، في النصف الثاني من الالف الثاني، أن يخلعوا لقب «ملك كبير» الا على نزر قليل من الحكام والولاة. فالملكية، الوراثية نظرياً، لا تمنع على منتزعيها، بعد فترة من الزمن، شرعيتها: البكر، في العائلة، هو الوريث الشرعي للملك، والملك يقوم بتنفيذ الحكم بعد استشارة الارباب بواسطة الكهان المعترف بهم: وهو محاط، في آسيا الصغرى وبلاد فارس، بالاشراف والنبلاء، «اصدقاء الملك» الذين يستشارون عند تعقّد القضايا وفي الملمات. ويساعده في تولي السلطان الوزير الكبير، المختار عادة، من اكثر اعضاء العائلة المقربين. وقد وصلت الينا، على كل حال، لائحة الموظفين الكبار في الحقبة الاشورية، لأن هؤلاء الموظفين كانوا يطلقون اسماءهم، تباعاً، على

سنوات الحكم ؛ ومن حسن الصدف ان تكون تلك الجداول لا تزال محفوظة .

كانت المدن العادية ، في العصور القديمة ، تحكم بواسطة وال يخضع للملك . وسرعان ما راح هؤلاء الولاة يدعون ان الآلهة هي التي وهبتهم السلطان ، فهم ، ليسوا ، من ثم ، موظفين خاضعين للملوك .

ونلمس ، في قيام الولاة ، برهاناً آخر على سيطرة النزعة الدينية على الملكية . فقد كان الملك ، نظرياً ، الكاهن الاكبر والملكية الكاهنة العظمى ، في اغلب دول آسيا الغربية القديمة وفي بلاد ما بين النهرين وبلاد الحثيين ، رغم انهما كانا لا يقومان ابداً بواجباتهما بتمام وكمال . وكان الملك ، في بابل ، صاحب الحق الاول في اعطاء اشارة البدء بتطواف السنة الجديدة ، بعد أن يكون قد أمسك بيده تمثال الإله بعل ، وهو يوفد ، للقيام بمهام الكهانة كلها ، مندوبين عنه يتصرفون وينطقون باسمه ؛ ونلاحظ ان الكاهن الاكبر كان يختار بالقرعة في الالف الثالث فيما كان ، في الالف الاول موظفاً ملكياً .

٢ — موارد الدولة

تجمع الدولة مواردها من الضرائب وغنائم الحروب . وقد لعبت الهياكل في الالف الثالث دوراً اساسياً في تنظيم موارد

البلد؛ فقد كان الملك يـُرسل الى الهياكل. بعد كل انتصار، جزءاً من الغنائم او عشرها؛ واذا أضفنا كل ذلك الى تقادم الشعب اضحى للهيكل رأسمال ضخم يستثمره كما تفعل المصارف في أيامنا هذه. وكثيراً ما ترفد الهياكل ملكاً استحوذت الضيقة بخناقه فتجود عليه مما لها إما مباشرة بان تضع ثروتها تحت تصرفه واما بطريقة غير مباشرة؛ فقد انبأنا التاريخ عن عدة ملوك شرقيين استولوا على كل ما في الهياكل من ثروات. ونلاحظ ان بعض المدن أعفيت من دفع اية ضريبة. ولكن النظام الضريبي بلغ اوج ازدهاره واكتماله في عهد الفرس فبلغت مجموعاته المستوفاة من الشعب ١٤٥٠٠ تالان، مع استثناء مقاطعة ميديا وفارس. وعندما سيستلب الاسكندر شوشان سوف يجد فيها ١٨٠٠٠٠ تالان قد وفرها الاخميديون.

أما مورد الدولة الثاني فقد توفره الحملات العسكرية والغزو الموسمي. واذا ما حلّ فصل الصيف. تبدأ الجيوش الغزو والسلب، هنا وهناك، متوسلة إلى ذلك اوهى الاسباب واتفهها؛ والويل لمن لا يدفع. وقد اطلقوا على الاعوام في فترة حكم السلالة الثالثة لمدينة أور. اسماء المدن التي شملها الغزو اكثر من مرة. وقد نقلت لنا النصوص الاشورية ضخامة الاسلاب وعدد الذين استعبدوا وسيقوا اسرى خلال حملات الملوك. واحياناً كان مندوب عن الملك يقود الحملات

ويترأسها . ويتألف الجيش من فرق متغايرة ؛ واهم تلك الفرق حرس الملك عند الاشوريين، وفرقة «العشرة الاف مقاتل» عند الفرس، وفرقة «الشباب او النبلاء» عند الحوريين . ومن الثابت ان فرقة الصدام هي التي ستقرر مصير الحرب نظراً لعتادها الممتاز واسلحتها الماحقة . ولا جرم ان الممالك القوية كانت لها الكتائب المنظمة والفيالق العسكرية المتمرسة في فنون الاعتراك . فكثيراً ما بعثت مصر إلى ملوك كنعان قواداً يمرنون جيوشهم ويعلمونهم اساليب الحروب .

٣ ــ القانون .

لا شك ان الشرائع هي المرآة الحقيقية التي تعكس حضارة ورقي اي بلد من البلدان ؛ وقد برهنت آسيا الغربية عن مدى تقدمها في هذا المضمار، لان الحفريات كشفت لنا عن قوانين وانظمة ونصوص قضائية تعود إلى حقبة السلالة الثالثة التي حكمت في مدينة أور (قانون باللغة السومرية من وضع اور-نامو، مؤسس السلالة، يكشف لنا ان غوديا عايش سنوات السلالة الاولى)؛ شرائع باللغة الاكادية تنسب إلى بيلالاما ملك اشنونا (شرقي بغداد) انظمة لبيت إشتار، ملك إيسين من السلالة البابلية الاولى، الى جانب شرائع ملوك اسرائيل التي نعرفها بواسطة الكتاب المقدس في عهده القديم. فقوانين حورابي (حوالي القرن الثامن عشر قبل الميلاد) ليست الا عقلنة

انظمة سابقة قديمة . فهي تقسم المجتمع إلى طبقات، طبقة الاحرار، وطبقة العبيد، والطبقة الوسطى بين الاحرار والعبيد . ولا جرم ان مبدأ القصاص او الثأر المعمول به انذاك يظهر لنا بوضوح قيمة الطبقات الثلاثة الايجابية والموضوعية . ومن الجائز ان ينقلب الحرعبداً او ان يصير العبد رجلاً حراً . فهمّ النظام البابلي الاساسي هو حماية العيلة بكل افرادها والحفاظ على ممتلكاتها وارزاقها والابقاء على تنظيم اقتصادي لا يدع شيئاً عرضة للمفاجآت والصدف . فالاحكام الاقتصادية قاسية جداً والغرامات التعويضية مرتفعة باهظة؛ والحالات التي تستوجب الحكم بالموت كثيرة جداً . فقد استبانت القوانين البابلية اكثر دقة وجلاء من القوانين السومرية ولكنها ، من جهة اخرى، بدت اشد صرامة وعنفاً في الحد من الجرائم .

أما القوانين الاشورية في القرن الرابع عشر، التي عثر على مجموعة منها في اشور فهي تفصح عن تراجع واضح اذا قيست بالقوانين البابلية . فاذا مات خطيب احدى الفتيات، فواجبها ان تتزوج اخاه أو احد احفاده ؛ وذلك التقليد الذي الذي لم يعرفه البابليون أخذ به الحوريون والحثيون والعبرانيون. ونلاحظ ان بتر الاعضاء يلعب دوراً مهماً جداً في الاحكام والعقوبات . وتدلنا النصوص التي وصلتنا عن الحثيين ان هؤلاء امتازوا بالتفهم والمنطق اكثر من سواهم ان في اشور

وان في بابل، حيث كان يتعرض المجرم لأقسى العقوبات وافظع الاحكام ؛ فالجرائم، عند الحثيين، تدرس حسب وساعة ضررها وفداحة عواقبها مما جعلهم، في اصدار احكامهم، اكثر عدلاً وموضوعية من باقي الشعوب .

٤ ـ التجارة .

لم ينقطع الاتصال في يوم من الايام بين مناطق آسيا الغربية القديمة. فقد راجت التجارة وزاولها الشعب كما عرفها الشرق منذ اربعين سنة مضت ، اي بالقوافل والاساليب التي ساعدت على الالتقاء الدائم بين مدن بلاد ما بين النهرين . ولم تكن اخطار الطرقات اكثر مما كانت في القرنين الماضيين ؛ فالحراس يرافقون القوافل وفريضة المرور تتيح اجتياز المناطق المحفوفة بالاخطار . واذا تطلب الامر نقل البضائع من اشور إلى الخليج الفارسي لجأوا إلى السفن لعبور الأنهر .

وعرفت آسيا نوعاً من التجارة اتسع انتشاره بسرعة، قوامه وجود شرك تقرض تجار القوافل رأس المال الذي يحتاجون اليه . فكان هؤلاء يبتاعون الاصناف التي تتطلبها المناطق التي يذهبون اليها . وكثيراً ما يبيعون ويشترون في ذهابهم وإيابهم . وحالما يعودون إلى نقطة انطلاقهم يسرعون إلى ارجاع ما استلفوا ويحتفظون لانفسهم بما ربحوا وغنموا .

ان اكتشاف وثائق مخطوطات المؤسسات التجارية المهمة، في كبادوكية واشور الشرقية وبابل يُشكل دليلا واضحاً على مدى نفوذ التجارة التي سيطرت على الشرق الادنى القديم. ونلاحظ ان هؤلاء المولين يبيعون الحقول ويسيرون القوافل ويُقرضون الاموال. فلا بأس، من ثم، ان ننسب إلى سدنة الهياكل اساليب التعامل المالي العصرية مثل الكمبيالات. ومن الواضح ان اثرياء الشرق قد عرفوا الانظمة المصرفية قبل ان يعرفها الغرب. ولكن نظام الكمبيالة انتشر في الكبادوك منذ أوائل الالف الثاني قبل عصرنا.

وتفادت تجارة الشرق الادنى القديم الانزواء داخل الحدود المقفلة، فانتشرت وعمت البلدان المجاورة. كما ابانت لنا عن ذلك النصوص المكتشفة. وهناك بلدان امتازا على سواهما، بإقامة العلاقات مع آسيا الغربية. انهما مصر واليونان.

٥ ـ مصر ـ ايجيه ـ الهند.

ان مصر التي لا تقل اهمية حضارية عن الشرق الادنى. هي ذات ماضٍ سحيق جداً في نظر بعض العلماء. ومن الثابت أن الاتصال والتعامل قد وجدا بينهما بواسطة القوافل والسفن. فقد دلت الحفريات على وجود حقبة. تعود إلى الالف الرابع قبل الميلاد، التقت فيها آسيا ومصر واشتركتا.

نوعاً ما، في حضارة واحدة. وكانت مصر انذاك تحبو إلى اول اطوار الحضارة، والشرق يدين بسلطان سلالة أُوروك. ثم انتقلت مصر إلى العصر الثاني الذي بدأ حوالي السنة ٣٢٠٠ قبل المسيح فيما كان الشرق بامرة سلالة جيمدت نَصْر.

وتلاقت فنون البلدين، طيلة ذلك الوقت، وتشابهت في مرافق كثيرة، مؤكدة تأثرها البين بالسومريين، وخصوصاً تأثير العيلاميين على مصر. فقد تبنت مصر الانظمة والتقاليد العيلامية بصورة واضحة جداً. ولكن التقابس بين البلدين سرعان ما راح يفتر مع كِرور الايام؛ فقد انطوت مصر على على نفسها وشرعت تبحث عن افاق جديدة تخصبها تجارة وفنوناً. فثبتت اقدامها في سوريا، وشرعت تراقب مرافئها الجنوبية ونفحت امراءها الهبات والهدايا وسيطرت على فنونها؛ واضحت من بعد، صاحبة الدار (القرنين الثامن عشر والتاسع عشر) وملأت صناعاتها وتجارتها الاسواق. فكان محصول ذلك ان راح الناس يقلدون الفن المصري، الأمر الذي ساعد على ولادة ما يدعى بالفن الفينيقي.

وتمتد إلى الغرب، المنطقة اليونانية ومن مراكزها الهامة جزيرة قبرس التي تُرى بالعين المجردة من الساحل الاسيوي ايام الصحو وإبان صفاء الافاق. وصدرت اليونان حضارتها إلى جميع جنبات سوريا وخصوصاً إلى اوغاريت (رأس شمرا اليوم) الواقعة قبالتها تماماً. وقد برهنت الحفريات،

هنا ايضاً، عن مدى وفرة التبادل الحضاري والتجاري منذ اقدم العصور والازمان ؛ فالمستعمرون اليونانيون يتدفقون ويستوطنون ويسيطر تأثيرهم بوضوح على اشكال مقابر اوغاريت ؛ وانتشرت صناعة الخزف اليونانية في سوريا انتشاراً منقطع النظير وغصّت بها الاسواق . ولكن العلاقات قطعت شوطاً مهماً جداً؛ ففي المنطقة الممتدة من الساحل السوري الشمالي إلى شرقي إيران، مروراً بشمال سوريا وشمال بلاد فارس، نلاحظ، طيلة حقب عديدة، تشابهاً وتوافقاً في صناعة الخزف إن في سوريا وإن في اليونان ؛ فيجدر بنا من ثم، ان نتساءل اذا كانت كل تلك الخزفيات مستوردة ام انها من صنع المهاجرين اليونانيين المستوطنين الذين نجهل الكثير عنهم ...

وانبأتنا حفريات مدن موهنجو دارو وهاربّا وشنهودارو ان الهند قد عرفت حضارة لا تقل اهمية عن حضارة سومر ولربما سبقتها في ذلك. ولكن لا يجوز لنا الجزم بأن الهند هي رائدة حضارة سومر . فالرموز التي كشفت عنها الحفريات لا تعطي الدليل الثابت . ولكن حصيلة الاكتشافات تترك الانطباع بان الهند قد اغترفت الحضارة من نفس النبع الذي اغترف منه السومريون .

الانطباع الذي سوف نخرج به من تلك الجولة الخاطفة يحملنا على الاعتقاد بان آسيا الداخلية التي اتصفت بالجمود

زمنا طويلا، لم تكن في العالم القديم وفي العصور الحالية أكثر انفراداً مما هي عليه في أيامنا هذه. فعندما بدأت الحياة في هذه المناطق فقد بدأت على نطاق واسع وبشمول ؛ ولم تستطع اي منطقة ان تتفرد باي مكسب دون سواها، وقتاً طويلاً. ولما اهتدى الانسان إلى المعدن اضحى ملكاً للناس جميعاً ، وقس على ذلك الكتابة والهندسة ؛ الثروة وحدها هي التي تفسح ، لمنطقة ما ، مجال التفوق على سواها : فانطلاقاً من هذا الواقع الموضوعي لا يجوز لنا أن ننكر بان بلاد ما بين النهرين، بثرواتها الطبيعية وميزات موسسي حضارتها هي، دونما ريب، البلد القائد الرائد ...

الفصل السّابع

التاريخ

(منذ البدء حتى أواخر الالف الثالث قبل الميلاد)

١ ـ تسلسل الاحداث .

ان الوثائق التي خلفها سكان ما بين النهرين تفتقر إلى التساوق والتوافق مما جعل المؤرخين يصطدمون بالعقبات الكثيرة الصعبة في تحديد الزمن الأكيد الثابت لتسلسل الاحداث . لذلك يبرز التباين والاختلاف في تتابع التواريخ المتفق عليها .

ولا شك أن علم الفلك قد نفحنا بافضل حل لمشكلة التواريخ وتتابعها . فبعض الملوك سجلوا بواسطة علماء الفلك الخسوفات وظهور النجوم في الحقب المختلفة . لذلك تيسّر للعلماء ، في ايامنـــا ، تحديد الزمن الذي شاهد فيه سكان ما بين النهرين تلك الاحداث الطبيعية ؛ ولكن تلك الخسوفات والكسوفات ، لا تزال عرضة للتبديل سعياً وراء التاريخ الاكيد الحقيقي . ومن البديهي ايضاً ان جداول السلالات لا تزال مسرحاً لبعض التطوير لتتناسب ومعطيات علماء الفلك وراصدي الكواكب والنجوم .

ولا جرم أننا خطونا خطوة حميدة نحو تقييم افضل لتسلسل الاحداث في حقب الماضي السحيق السحيق . وسوف نعتمد، هنا، التواريخ التي اقترحها، في سنة ١٩٤٠، العالم سيدني سميث :

السلالات العاديّة	القرن ٢٨ – ٢٤	قبل المسيح
سلالة اكادية	القرن ٢٤ – ٢٣	قبل المسيح
الغوتيون	القرن ٢٣ – ٢٢	قبل المسيح
سلالة أور الثالثة	القرن ٢٢ – ٢١	قبل المسيح
سلاسة إيسين	القرن ٢١ – ١٨	قبل المسيح
سلالة لاسا	القرن ٢١ – ١٨!	قبل المسيح
سلالة بابل الاولى	القرن ١٩ – ١٦	قبل المسيح
(حمورابي ١٧٩٢ – ١٧٥٠)		

٢ – حقب ما قبل التاريخ .

ان جداول السلالات بملوكها الاسطوريين في العصر القبلطوفاني تشهد على وجود حضارة قديمة جداً اتاحت لنا، بواسطة الحفريات المكتشفة، ان نقسم التاريخ إلى عصور نورد، في ما يلي، ملخصاً عنها :

بعد ان قطن الانسان المغاور والكهوف، راح رويداً رويداً يتقدم في تطوير سكناه واعماله ؛ فقد اصبحت المساكن اكواخاً ثم اضحت، من بعد، أبنية بدائية الفن

والهندسة ؛ وكانت الآلات والمعدات مقتصرة على العظام والحجارة .

ثم كانت، في الجنوب، حقبة اوبيد (جوار أور) ؛ انها، في البدء، نيوليتية، استطاعت التوصل إلى معرفة النحاس الحقيقية، والجوهرة والفن الهندسي المعماري (هياكل إبريدو) . الاموات يوارون الثرى مستلقين على الظهر ، محاطين باثاث من الحلى (عقود من حجارة مصنعة) واواني لتقادم المأكولات . وهذه الاخيرة مصنوعة من معجون اصفر مائل إلى الخضرة، من مادة الفخار النقي، رقيق الجنبات، ذو تزيين بلون واحد هو اللون الاسود، واحياناً بلون مائل إلى الاحمرار في منطقة ما بين النهرين . اما في ايران فقد اعتمد فن الزخرفة على رسوم الحيوانات وفق نسق فني هندسي ؛ فتلك هي صفات الزخارف المكتشفة في شوشان وتل باكون الواقعة في جوار برسيبوليس . ويدعم افتراضية القادمين الجدد، في نهاية الحقبة، تبدل ملحوظ في طريقة دفن الموتى ؛ فقد راحوا يوارون الاموات في الاجداث مستلقين على جنبهم مع تمدد كامل للفخذين .

فحضارة اوبيد، التي انفردت، اولاً، في الجنوب، سرعـــان ما خطت نحو الشمال حيث سيطرت على حقب سمرّا وتل ـ حلف (من اشور حتى البحر الابيض

المتوسط) حاملة معها مع حضارتها نفسها، فن زخرفة متعددة الالوان .

وتلا عصر أوبيد عصر أوروك ؛ مع اختراع الكتابة، وتقدم النحت في الحجر والهندسة وصناعة المعادن . ويشهد هذا العصر تبدلاً واضحاً في فن الزخرفة، فقد اختفى الرسم واضحت الآنية إما ملساء وإما مطلية بصبغة موحدة حمراء او بنية ومزينة بحزات من صنع الاظافر .

فهذه الحقبة، اذا اعتمدنا التقدم الذي ميزها، شملت آسيا الغربية كلها . ولكن الآثار المكتشفة تدلنا على انها كانت اقصر من حقبة أوبيد، اي أنها عمّرت من السنة ٣٤٠٠ إلى ٣٢٠٠ تقريباً .

ويدور جدل كثير حول العصر الذي سوف يلي عصر اوروك وهو ما يدعى بحقبة جيمدت نَصْر . فاذا كانت الزخرفة قد احتلت المكان الاول في تطورها، لا شك ان باقي الاشياء لم تتطور ابداً بل بقيت كما كانت في حقبة اوروك . وعادت إلى الرواج الزخرفة الملونة، ولكن تعدد الالوان اضحى ميزتها الرئيسية ؛ فمعجونها خشن وجوانبها ضيقة، واشكالها أكثر ضخامة . وهذه الحضارة التي لا نجدها في كل مكان بالنسبة إلى زخرفتها، لم تعمر هي أيضاً وقتاً طويلاً ؛ ونستطيع ان نؤرخها من سنة ٣٢٠٠ إلى ٢٩٠٠ تقريباً .

الاعتقاد بطوفان عظيم شامل الذين تحدثت عنه البيانات، قد لتقي ما يدعمه في معطيات الحفريات التي اجريت في بعض المناطق. دلت تلك الحفريات على ان فيضاناً عمّ المنطقة كلها، في احدى فترات الزمن. وما ذلك سوى فيضان نهري دجلة والفرات الموسمي، الذي ترك آثاره عند الناس لما صحبه من عنف وشدة؛ ولكنها عوارض محض محلية موضعية؛ وتفصح اثارها عن حدوث كوارث قديمة جداً، حلّت في ازمان مختلفة. فقد كانت أور مسرحاً لتلك الكوارث في عصر أوبيد؛ وفي أواخر عصر جيمدت – نَصْر في مدينة قيش.

ومع تلك الحقب نترك عصر ما قبل التاريخ لنبدأ العصور القبتاريخية؛ فجداول السلالات تضعنا في غمرة سلالات ما قبل الطوفان الاولى، التي – رغم غرابتها في البداية – تحبو بسرعة نحو مجالات المعقول المحتمل حدوثه.

والحقبة التي خلفت حقبة جيمدت – نصْر وصفت بانها حقبة السلالات القديمة؛ فقد امتازت بالنمو الفني: تبدّل في تزيين الاختام، ظهور نوع جديد من الزخرفة (العدول عن التلوين)، واتصاف العمارات بالاشكال الجديدة مثل كثْرة التماثيل ووفرتها. ولا شك ان النصوص التي تتحدث عن الجزء الاول من تلك الحقبة زهيدة نادرة.

٣ ــ سلالة أور الاولى ــ موسسة سلالات تلو .

يبدأ الجزء الثاني من الحقبة مع سلالة أور الاولى مزامنة ذرية حكام وملوك لاغاش . ويتميز زمن سلالة أور الاولى بخصب المنجزات الفنية . فقد شاد أور مم، ميزانيبادّا، موسّس السلالة ، هيكل تل أُوبيد ، في جوار أور ؛ وشهدت هذه الحقبة قيام مقبرة أور الملكية التي ستحتفظ باهميتها حتّى قيام مقبرة اكاديه التي اسلفنا الكلام عليها . ومن المحتمل أن تكون السلالة قد اطاح بها إليانارد اللاغاشي الذي تحتّم عليه، ايضاً، ان يقاوم هجمات مدينة أُومّا المجاورة بعد مطالبته بصريمة واقعة بين المدينتين . فبعد انتصار لاغاش، اقام نصبا دُعي نصب الصقور (في متحف اللوفر) تخليداً لفوزه وظفره .

تلك المملكات الاولى، المعروفة جيداً بواسطة الرموز التي خلفتها، تظهر بلاد ما بين النهرين في اوج تصديها للعيلاميين المتربصين بخيرات السهل، فيما راحتا كل مدينة تحاول توسيع مدى نفوذها على حساب غيرها من المدن . والفرق التي تتولى القيام بالحملات نوعان: المشاة، لابسو الوزرة وسلاحهم الفأس ذات الغلاف ، والمحاربون الذين يرتدون معطفاً سميكاً من الجلد، واحياناً مقوىً بصفائح من المعدن او بترس مثلث ؛ ويحمل قسم من الجند الترس المثلث فيما الاخرون يسددون روؤس رماحهم الطويلة

بين فجوات الترّوس، متأهبين للإلتحام . والعربة الحربية مكونة من صندوق مرتفع المقدمة مجوفها حتّى يتاح المجال لتمرير الازمة ؛ ويقف ، إلى جانب السائق، محارب يرمي الحراب باليد، لان الجيش السومري، في تلك الأونة، كان قد عدل عن القوس التّي عرفتها الاجيال السابقة . وكان الحمار، على انواعه المتوحشة المختلفة، حيوان القطر والجر، لان الحصان لم يستعمل لذلك الا في عصر السلالة البابلية الاولى .

ولا شك أن تأثير السلطان الديني على تلك المجتمعات البدائية لم يطل به الزمن حتّى وضع مقاليد الحكم بين ايدي كبار الكهنة، مما جعل اوروكاجينا يرغمهم على اداء الحساب عن اغتصابهم وابتزازهم . فكان من نتائج تلك الاصلاحات ان راحت البلاد تضعف، وهب لوغلزاجيزي فاستولى على لاغاش، وحالفه الحظ، فتوفق إلى تأسيس امبراطورية سومرية، لم تعمّر، مع الاسف ، زمناً طويلاً .

٤ ــ سلالة أكّاد . الغوتيون . سلالة أور الثالثة .

تهيأ للساميين المستقرين في أكادية أن يستولوا على مقاليد السلطة بقيادة سرجون (المعروف بالقديم)، نديم احد ملوك مدينة قيش . وتبدى سرجون غازياً (القرن الرابع والعشرون) ؛ وبعد أن أضحى سيد المملكة السومرية كلها

التي اوجدها لوغلزاجيزي، تقدم نحو الغرب حتى « بلاد الأرز » منطقة (جبال الامانوس) أو (حسب الاسطورة) تغلغل، متقدما، حتى في آسيا الصغرى حيث تسكن جالية سامية، يستعبدها حاكمها. هذه الجالية، المقيمة في البلد الذي سنلاقي فيه في اواخر الألف مؤسسات سامية أخرى تحت تصرف اشور، تحدّد، نوعاً ما، بداية احتلال اتصف بالدوام حتى الآن. وهناك من افترض، دونما أي دليل، ان امبراطورية سرجون امتدت إلى جزيرة قبرص. اما في الجنوب، فالاعتقاد السائد ان حدودها بلغت جزر البحرين وانها انشأت المؤسسات في شرق الجزيرة العربية.

ثارت على سرجون، في اواخر عهده، الشعوب المختلفة التي تألفت منها مملكته، ولكنه استطاع التغلب على المتمردين ودحرهم نحو الشمال.

وكان على نارام ــ سين، ثالث خلفائه، ان يتصدى لتحالف انطلق من سوبارتو، مؤلف من الغوتيين ولولوبيي زغروس. وتتبعهم حتى أعالي الجبال، ثم عرج على الجهة الجنوبية ــ الشرقية حيث خضد شوكة بلاد العِيلام وارغمها على طاعته. ولكن ذهبت جهوده ادراج الرياح اذ سرعان ما تألف التحالف من جديد بعد ان استمال اليه ساميين مثل ملك قيش وملك الاموريين. وجابه شركليشاري، خليفة نارام ــ سين، نفس الاعداء ولكن ما عتمت المملكة حتى

تفسخت (القرن الثالث والعشرون) . وكانت حصيلة تلك الحملة الثقافية وسم المناطق المحتلة بالسامية وهي زغروس والعيلام . وانتصب بوزور – شوشيناك، حاكما في بلاد العيلام فجمل شوشان وانتهى به الامر ان ثار على الاكاديين .

وحينذاك استولى الوتغيون، المنحدرون من زغروس، على بابل او بالاحرى على قسم كبير منها ؛ وحاولوا، في البدء ان يسيروا على غرار مرووسيهم، ولكنهم سرعان ما فشلوا ولم ينجحوا . واحتفظت اومّا ولاغاش وأور بالاستقلال الذاتي لقاء دفعها جزية سنوية .

ولم يطل الوقت حتّى عصفت رياح ثورة جديدة فاستولت على الحكم في أور سلالة ثالثة (القرنين ٢٢ – ٢١) واعادت إلى البلاد الازدهار والبحبوحة . وعاصر غوديا حاكم مدينة لاغاش، آخر الملوك الغوتيين (حوالي السنة ٢١٥٠ قبل المسيح) وغنمت المدينة في عهده ازدهاراً لا مثيل له . ودلت الرموز التي خلفها غوديا على منجزاته الخيرة القوية وخصوصاً تشييده هيكلا للإله نينجرسو، ذلك الهيكل الذي مهره العائدات وأولاه كل ما يتطلبه قصر ملكي من أثاث ورجال. وقد اهتدينا. عرضاً، على البلد البعيد الذي جلب منه المواد الثمينة لبناء هيكله .

والثابت ان عهد غوديا قد جعل الفن السومري يتربع على اوج ازدهاره، وحافظ الفن ايضاً على مستواه الرفيع طيلة

حكم السلالة الثالثة في أور، آخر ظاهرة من ظاهرات التفوق السومري .

كان على أورنامو، اول ملك من سلالة أور الثالثة، ان يستعيد السلطة على مملكته . وخلّفت لنا الآثار نصباً ممتازاً يمثل الملك اورنامو. وبعد أن استولى على لاغاش، اوروك، لارسا، نيبور وجنوب اكّادية. استعاد القاب الاكاديين : ملك العالم. ملك المناطق الاربع ؛ واجتهد خلفه شولجي في النسج على غراره وتكميل ما بدأه سلفه؛ وبعد ان اعاد الطمأنينة في الداخل، راح شولجي يتصدى للشعوب التي كانت تقطن سلسلة جبال زغروس، ولكن الواقع يظهره غير مهتم بشوشان التي احتفظ السومريون بالسيطرة عليها .

وخلف شولجي ولده آمار – سين، فسار على نفس الطريق التي عبّدها والده من قبله . اما ابن آمار – سين، الملقب شو – سين، فقد عهد بالسلطان إلى نائب عنه وهب يحصن منطقة سيبار في وجه غزوات الاموريين .

وسرعان ما عصفت رياح الاخطار، وارغم إيبي – سين (القرن الحادي والعشرون) على صدّ هجمات تحالف قوي . فاستولى ملك ماري على إيسين، والعيلاميون على لارسا ؛ واقتيد إيبي – سين المهزوم إلى العيلام .

وخلفت سلالة أور سلالتان : سلالة إيسين وسلالة لارسا

(من القرن الحادي والعشرين إلى القرن الثامن عشر). وبرز في تلك الاثناء منافس خطر من السلالة البابلية، هو الآموري سومويابوم؛ ولم تكن بابل حتّى ذلك الوقت الا مركزاً ثانوياً ولكنها ستنقلب مع السلالة الاولى، عاصمة دولة مترامية الاطراف.

ويبدأ، من ثم، صراع لا هوادة فيه، بين السلالات الثلاثة. وستهرع مملكة لارسا إلى تعطيل قوة إيسين (اوائل القرن الثامن عشر) ولا تلبث حتّى تصبح هي ايضاً فريسة سائغة لبابل (السنة الثلاثون لحمورابي).

٥ — فينيقيا — آسيا الصغرى — العيلام.

نلاحظ ندرة الحوادث في باقي اجزاء آسيا ظيلة الالف الثالث؛ ولكن بعض الاضواء الناصلة اتاحت لنا تمييز ما جرى في بعض المناطق.

فقد كانت مدينة جبيل الفينيقية على اتصال دائم وثيق بمصر؛ ومنذ السلالة الثانية حتّى السادسة درج الفراعنة على ارسال هداياهم المتتابعة إلى هيكل سيدة جبيل، ولا شك، ان اوجه الشبه كثيرة جداً بين إله الساحل تموز وبين الإله المصري اوزيريس. والاثار التي اكتشفت في رأس شمرا، واوغاريت القديمة، وفي مجدو التابعة لأرض كنعان، تنقلنا إلى بداية العصر الذي اطلقوا عليه اسم العصر البرونزي.

ولا شك أن آسيا الصغرى قد كانت مسرحاً لأولى الغزوات الهند – اوروبية، عند اجتيازات قبائل اللوويين Lawifes مضيق البوسفور . ومن ثم، بعد السنة الالفين اجتاحت المنطقة قبائل هند – اوروبية جديدة وامتزجت برواد الحثيين . وتمركزت في كبادوكيا جالية اشورية؛ وتحدثت المخطوطات عن مدى تلاحم وتمازج المجتمعين الاسيوي والهند – اوروبي وكان من نتائج ضعف الاشوريين بداية تراجع وهزيمة الساميين ؛ فاستولى القادمون الجدد، بقيادة أنيتا، على مقاليد السلطان. فولدت حينداك الامبراطورية الحثية . فدخول القبائل الهند – اوروبية إلى آسيا الصغرى نحو السنة الالفين يقابله من جهة ثانية تمركز الاشينيين على السواحل وفي جزر بحر ايجيه .

أقامت بعض الشعوب الهند – اوروبية في إيران فيما تغلغل غيرها بين الحوريين الاسيويين فسكنوا شرقي نهر الفرات وراح بعضهم فاستوطنوا في جبال زغروس .

ولا شك أن العيلام هو البلد الذي نعرف عنه اكثر من سواه ؛ فبعد حكم الامراء الذين عاصروا الاكاديين والتوسع الذي وضع حداً لسلالة أور الثالثة، نرى كونكونو حاكم لارسا (القرن الحادي والعشرون) يهاجم العيلام وبلاد شِماش ؛ ويقيم حكمه في شوشان بواسطة حاكم عينه هناك؛

ويوجد كونكونو نوعاً جديداً من الحكم قريب الشبه بالحكم الاقطاعي .

أما الالف الثالث فقد كان مسرحاً للاعتراك الدامي بين السومريين والساميين، ولم يلبث السومريون حتى غلبوا على امرهم .

ومنذ ذلك التاريخ اعتلنت الحرب بين القوى الثلاثة : الساميين، والاسيويين والهند ـ اوروبيين . ومع حلول الالف الاول اضحى الاعتراك فقط بين الساميين (الاشوريون والبابليون) والهند ـ اوروبيين الذين، بواسطة الفرس وفتوحات الاسكندر، بدّلوا في فترة من الزمن، مصير آسيا .

الفصل الثامن

التاريخ (تابع)

الالف الثاني قبل عصرنا

١ – السلالة البابلية الاولى .
الحثيون ، الكثيون والهكسوس .

ابرزت بداية الالف الثاني انهزام مملكة لارسا على أثر هجمات حمورابي (١٧٩٢ – ١٧٥٠) الذي استولى ايضاً على بلاد ماري ذات النصوص الاثرية الثمينة، للتعرف على البلاد المجاورة لمنطقة ما بين النهرين في تلك الحقبة . فهي مركز تجاري جد متطور ومنطلق حركة دبلماسية متكثفة للحؤول دون المطامع البابلية . وعرف حمورابي صاحبُ الاعمال التشريعية التي نظمت وبعثت الازدهـــار في دويلاته ، كيف يحافظ على نصاعة وحرمة الامبراطورية التي شادها ؛ ولكن الساعات العصيبة كانت في انتظار خلفائه . فقد هبّت رياح التهديد من جبال زغروس حيث اخذ الكثيون يتململون ويثورون ؛ وانتهجوا في البداية سبيل التغلغل الهادىء ؛ وتشير النصوص إلى تزايد عددهم يوماً بعد يوم ؛ ويجوز القول بان جزءاً لا بأس به من بلاد

ما بين النهرين كان رهن ارادتهم منذ بداية الجزء الاول من القرن السابع عشر ؛ وحينذاك راحت غزوة حثية تضع حداً لتلك السلالة (١٥٩٥) وشرعت تتقدم، من نصر إلى نصر، حتى تمركزت في مدينة حلب.

وكان الحثيون، منذ عهد الملك أنيتا (حوالي العام ١٨٠٠ قبل المسيح) يجدون في تدعيم سلطانهم، وخصوصاً طيلة حكم لابارنا الذي نظم « الامبراطورية الحثية القديمة » والذي تمكن حفيده، مورسيل الاول، من افتتاح حلب وتدمير بابل بمساعدة القبائل الامورية التي تنكرت لصلات القربى التي تربطها بالسلالة البابلية.

يحدد المؤرخون، عادة، بدء هجرة قبيلة ابراهيم الارامية التي ستكرس اول احتلال عبراني لأرض كنعان في عهد حمورابي، المعاصر أفول نجم السلالة المصرية الثانية عشرة. وفي هذه الحقبة ايضاً لا يزال ملوك جبيل يولون فراعنة مصر الطاعة والاذعان.

ان حضارة تلك الفترة من التاريخ تظهر مستوى اوغاريت الثاني (الذي بقي مسيطراً حتى ظهور الهكسوس) ؛ ونلاحظ تأثيراً يونانياً إلى جانب التأثير المصري. لا شك ان التأثير المصري شمل فقط النواحي السياسية، فيما برز التأثير اليوناني في العادات والتقاليد والاشياء المستوردة.

استولى الكشيون، في القرون التالية، على بلاد ما بين النهرين ، وسعوا إلى ابقاء وتبني العادات البابلية عوض المحافظة على ما كانت تتبعه بلاد الرافدين ؛ ولكن تلك السلالة وجدت ذاتها مرغمة على السير في ركاب نوع من التجدد والتحديث . واصبح الحصان الذي عرفه البابليون ولم يستفيدوا منه الا عرضاً، ضرورة لا غنى عنها في جر العربات الحربية طيلة حكم الكشيين ، الأمر الذي جعلهم يتفوقون بسهولة ويسر، على الغزاة والاعداء .

وكانت المملكة الحثية تستعيد قوتها طيلة ذلك الوقت . ولا بد لنا من ذكر الملك الحثي تيليبينو الذي يعود اليه الفضل الاكبر في تعزيز القوات الحثية وتهيئتها للمستقبل القريب . وكانت ولاية ذلك الملك بعد مضي زهاء قرنين لم نعرف فيهما اي شيء عن الملوك الحثيين . ونلاحظ ان من حسنات التأريخ الذي عرضه حمورابي وسلالته ، حذف الحقبة التي يعتبر وجودها غريباً .

ان وصول الكشيين إلى بابل يعتبر رواية عرضية لتكشف حقبة بتحركات الهجرة . واحدى تلك التحركات هي تحركات الهكسوس الاسيويين الذين غزوا مصر واتخذوا سكناً لهم منطقة الدلتا . وهذا الاحتلال الذي يشبه احتلال

الكثيين ، دام حتّى سنة ١٥٨٠ عندما شرع احموسيس الاول في شن حرب التحرير ، وما لبث حتّى طرد الغزاة واقتفى اثارهم في بلاد كنعان حيث وطد حكمه ، واستعاد من ثم ، كامل السلطات. كثيراً ما احتدم الجدال حول اصل وطبيعة الهكسوس ؛ البعض يعتبرهم من الاسيويين ومن صلب الحوريين ؛ ويعتبرهم البعض الآخر ساميين من كنعان. ولكن الآثار التّي خلفها الهكسوس تمت بصلات وثيقة إلى الحوريين والكنعانيين . ولكن الشيء الثابت هو أن الغزاة كانوا من قبائل متنوعة متمازجة . فالهجرة الشاملة التّي خضت آسيا الغربية وقادت الكثيين إلى بابل ، والحوريين إلى شمال بلاد ما بين النهرين ، حتّى البحر الابيض المتوسط وفلسطين ، لم يقم بها شعب واحد صرف ، فقد كانت القبائل المتعددة تنخرط في صفوف الغزاة على طول الطريق. ولا شك ان الكنعانيين الذين كانوا آخر المندمجين في الصفوف اضحوا الكثرة الساحقة نظراً لقربهم من مصر .

٢ ــ الميتانيون ، الامبراطورية الحثية ومصر .

كان الحوريون ، خلال فترة حكم الهكسوس ، قد اقتطعوا لهم مملكة في سوبارتو وفي سوريا العليا ؛ ويبدو أن نفوذها لم يتسع شمولاً وسيطرة . وعلى العكس ، قبل عهد

الحثيين الرائع ، كان النفوذ الحوري ـ الميتاني مسيطراً على آسيا الغربية، رغم ان واشوغاني العاصمته لا تني مجهولة الهوية حتى الآن ؛ وتبلغ حدود الامبراطورية، من جهة، جبال زغروس في منطقة ارافا ــ كركوك، ومن جهة اخرى سوريا العليا ؛ والظاهر انه كان لها بعض من سلطان على أرض كنعان . فقد دافعت عنها طيلة سبعة اشهر عندما شاء الفرعون تحوتمس الثالث، في النصف الاول من القرن الخامس عشر، احتلالها، فجابهته امام مدينة مجدو قوات تحالف الامراء الذين كان في عدادهم امير قادش الواقعة على نهر العاصي .

ولكن مملكة ميتاني لم تكن لها القدرة الكافية حتى تصمد امام هجمات القوات المصرية ؛ لذلك نراها تحتاج إلى مساعد وحليف ؛ وتشاء الصدف ان يهرع كل من الامراء المجاورين إلى ارسال الجزية للفرعون، وكان رائدهم في ذلك الملك الحثي . وهكذا، اذا استثنينا مملكة ميتالية، نلاحظ ان ارض كنعان كلها وآسيا الصغرى حتى قبرص قد رضخت وانحنت امام مصر . لا شك ان التنافس كان غير متكافىء .

واعتكف الملك الميتاني على اعداد العدة للأخذ بالثأر . وسوف تحارب الفرق الاشورية تحت اللواء الميتاني . وما

إن اطمأن الملك الميتاني حتى راح يعقد عرى الاتفاق مع الفرعون تحوتمس الرابع (١٤٢٠ ـ ١٤٠٥) الذي سرعان ما اتخذ زوجة له حفيدة حليفه الجديد. وهكذا سوف تكون والدة امنوفيس الثالث ميتانية. وسيتزوج امنوفيس الثالث ايضاً فتاة ميتانية، اضحت بعد موته، زوجة ولده، امنوفيس الرابع ، وهي، في رأي بعض علماء الاثار، الملكة المصرية الشهيرة نفرتيتي.

ولم يطل الوقت على ازدهار المملكة الميتانية. فاستطالت عليها المنافسات والاعتراكات من كل جانب فسهل على الحثيين ابتلاعها لقمة سائغة. ولكن اشور تابعت الترقب واغتنام كل سانحة تفسح لها مجال القوة والتأهب يوم تدق ساعة الصفر. وهكذا سوف نجد، في كل ذلك الجو المشحون بالتوتر والحذر، مقدمة لتلك الحملة الضخمة التي ستكون المنطقة كلها مسرحها، بعد مئة سنة.

وكانت أشور وبابل، طيلة ذلك الزمن، في تحرك دائم في سبيل استعادة نفوذهما. فعمد شلمنصر الاول الاشوري إلى نقل عاصمة بلاده من اشور إلى كلاه؛ وتغلّب ابنه على الحثيين. وكان الحوريون، ايضاً، لا ينفكون يستولون رويداً رويداً، على بقايا المملكة الحثية، بينما الاشوريون يوجهون كل قواهم لرد هجمات القبائل الزاحفة من الشرق؛

وكانت اشور كلما اقتربت نهاية الالف الثاني ، ترسخ سيادتها على بابل ؛ وفي مقدورنا، منذ الآن، التنبؤ بمملكة أشور العظيمة وبظهور الملوك السرجونيين .

٣ – فينيقيا . خروج العبرانيين من مصر .

تفردت فينيقيا بنشاط بارز في القرون الاخيرة من الالف الثاني ، واستعاد ملوك مصر كامل سيطرتهم على النصف الجنوبي من البلاد ؛ لذلك عثر على اواني من صنع مصري في قبر الملك احيرام الفينيقي ، في جبيل . ولكن مدينة أوغاريت ، في الشمال ، بقيت تحت السيطرة الحورية . وكشفت حفريات العالم شيفر مدى التعاون الوثيق بين الحوريين واوغاريت وخصوصاً جزيرة قبرص .

وسجلت نهاية الالف الثاني حادثاً مهماً جداً سوف يترك أثراً بالغاً في المستقبل، وهو توطن العبرانيين، الخارجين من مصر، في ارض كنعان . ولا شك ان الحدث معروف رغم ان بعض اشكاله وحيثياته لا تزال عرضة للشك والاخذ والرد. فقبل دخول الهكسوس إلى مصر ، كان الساميون قد دخلوها جماعات جماعات ، سعياً وراء التجارة . ولا شك ان تدفق تلك القبائل قد تضاعف ، في عهد الهكسوس ؛ ومن الجائز ان يكون استيطان يوسف ، الوزير السامي ، قد تم في ذلك

العهد . وبعد طرد الهكسوس اضحى الاسرائيليون في وضع لا يحسدون عليه، ويسرد لنا الكتاب المقدس قصة خروجهم من مصر بقيادة موسى . وقد كان النزوح في عهد الفرعون مينيبتاح ، خليفة رعمسيس الثاني ؛ ولكن بعض الصعوبات تعترض الركون إلى ذلك التاريخ : فقد جعل مينيبتاح الاسرائيليين في عداد الذين يتصدون له ويعادونه، الامر الذي يؤكد سكناهم ارض كنعان قبل توليه الحكم، وهناك تقليد يقول بانقضاء فترة اربع مئة سنة بين خروج اليهود من مصر وبين بنائهم هيكل سليمان . وذلك ما حمل بعض علماء الآثار على توقيت خروج الاسرائيليين من مصر في القرن الخامس عشر .

ولن تلبث آسيا الغربية حتى تنقلب مسرحاً لحضة جديدة . فقد ارغم العدوان، المصريون والحثيون، على الكف عن الاحتراب وانتهاج التهاون بعد معركة قادش لكي يجابها الغزاة الهنود – اوروبيين الذي كروا بحراً وبراً باعداد كبيرة جداً نحو آسيا الصغرى ومنطقة الدلتا . ولم يطل الوقت حتى شن هؤلاء الغزاة هجوماً راعباً جعل كل شيء ينهار امامهم؛ تهدمت مدينة طروادة عام ١٢٠٠ حسب رأي اغلب العلماء، واستوطن الفريجيون في قلب الامبراطورية الحثية . ثم تجدد الهجوم على شمالي سوريا وجزيرة قبرص . وهكذا اكتسحت شعوب لا تعرف حتى الآن هويتها، سوريا كلها. وكان رعمسيس الثاني

يحكم مصر حينذاك، فاعترض الغزاة ودحرهم نحو اوروبا وساحل افريقيا الشمالي، فيما استطاعت احدى القبائل المدعوة بولوزاتي او الفلسطينيين ان تستوطن في جنوب ارض كنعان بين غزة وجبل الكرمل، ومن ذلك الوقت اصبحت تلك المنطقة تعرف باسم فلسطين .

٤ ـ العيلام ـ توطن العبرانيين في ارض كنعان .

وبقي القسم الداخلي من الساحل السوري في منأى عن هجوم الغزاة الذين قذفهم البحر . واستطاع العيلاميون ان يستريحوا، نوعاً ما، من قسوة الصراع الاشوري والبابلي ؛ وتهيأ لهم ان يتخلصوا من النير الكثي . وباشروا السعي الى الأخذ بثأرهم من الاشوريين والبابليين ، بنشاطهم الدائب في اذكاء روح البغضاء بين الشعبين الجبارين . وراحوا يترقبون السانحة للقيام بالدور الفعال وتسديد الضربة الماحقة . وتشاء الاقدار ان يحالف الملك العيلامي شوتروك ـ ناهونته الاشوريين فيغنم، إلى جانبهم، الفوز والنصر .

وهكذا رأت نهاية الالف الثاني بروز قوة الاشوريين والاسرائيليين . وافادت اشور من خفوت نجم بابل على يد العيلاميين لترسيخ سيطرتها وتوسيع مدى نفوذها . ولا جرم ان تقدم اشور ليس الا ثمرة الكفاح والصبر والجلد . ولكن

الاستقرار لن يكتب لها حتى في أوج جبروتها في عهد السرجونيين .

حالما ألقى الاسرائيليون رحالهم في ارض كنعان جابهوا صعوبات شائكة، ليرسخوا اقدامهم على ارض ليست لهم . وكانت ارض كنعان، في تلك الفترة، قد تخلصت من النير المصري . وكان يقود الاسرائيليين اثناء غزوهم، زعماء من صلبهم، اطلقوا عليهم اسم « القضاة » . وتمكن هؤلاء القضاة بفضل تماسكهم واتحادهم من الاستظهار على مناوئيهم. ولا جرم ان اشهرهم هو شمشون الذي حارب الفلسطينيين بضراوة وبسالة . ولم يطل الوقت حتى اقام الإسرائيليون عليهم ملكاً، سعياً منهم وراء وحدة أشد وتناسق يدوم. فاختار لهم النبي صموئيل شاول ملكاً (منتصف القرن الحادي عشر) . ولا شك ان تناحر اشور وبابل وانقسامات مصر وبلاد ما بين النهرين ستصبح كلها رفداً لا بأس به لنمو قوة الاسرائيليين وازديادها، تلك القوة التي سوف تضمحل يوم يزول اختصام جيرانهم .

وفي الوقت الذي كانت تأفل فيه شمس الالف الثاني، كانت امبراطوريات جبارة كالحثية والحورية تغيب وتندثر . اما اشور فلا تني تخطو الخطوات الواسعة نحو احتلال

المركز الاول . فيما الماديون والفرس ، المتحدرون من الارومة الآرية ، يدخلون ايران في أواخر الالف الثاني ؛ وسرعان ما اندحر الفرس نحو الجنوب امام الماديين الذين استولوا على الشمال بعد أن سيطروا على كل شيء سيطرة تامة . ولن يطول بهم الوقت حتى يحتلوا، في الالف الاول، مكان الاشوريين .

الفصل التاسع

التاريخ (تابع)

الالف الاول قبل عصرنا

١ ــ فلسطين، فينيقيا، سوريا.

اهم حدث في بداية هذا الالف هو ترقي اسرائيل وتوافر حظها وسعدها. فقد امتاز ملك شاول بحملات ضد جيرانه: فلسطين، ادوم، موآب وآمون. وقُتل شاول في معركة جبل جلبوع. فعين صموئيل داود ملكاً ومسحه. (١٠٢٩ ــ ٩٧٤)؛ فكان أول عمل قام به الملك الجديد اعادة وحدة شعبه، تلك الوحدة التي حاول ابناء شاول تفكيكها بمطامعهم. وما عتم حتى استولى على أورشليم وجعل منها عاصمة مملكته. وكان الاسرائيليون، منذ خروجهم من مصر، مجرد قبائل. فسعى داود إلى صهرهم شعباً واحداً واقام حوله جيشاً يتمتع بالمقدرة والقوة. وكانت قبيلة لاوي تتولى الكهانه واقامة الطقوس الدينية. وراح الملك الجديد يخطط لبناء هيكل كبير جديد ليحفظ فيه تابوت العهد. واصبح سليمان (٩٧٣ ــ ٩٣٣)، بعد اعتراك شديد مع اخوته، ملكاً. فاقام مع مصر علاقات الود والصداقة. واشاع الطمأنينة الازدهار

في جنبات مملكته كلها بفضل التجارة التي اولاها كل عنايته . فاستجلب من اوفير منتجات الهند والشرق الاقصى بمساعدة اسطول ملك صور البحري . واستعان ايضاً بالمهندسين الصوريين، ليبني بخشب الارز قصره وهيكلا متّرامي الاطراف في اورشليم . ولكن مصاريف العاهل الباهظة، وتعاطفه في السكوت عن الطقوس الغريبة التي درجت عليها زوجاته، جلبت له غضب الشعب فثار عليه، يرفده في كل ذلك جمهور الكهان .

وانقضت ايام اسرائيل الزاهية؛ فانقسمت القبائل بعد موت الملك سليمان واحتدم الخصام . فنادت قبائل الشمال العشرة بيربعام ملكاً عليها . وهرعت مصر تبارك تولي الملك الجديد العرش . وهكذا ولدت مملكة اسرائيل التي يحدها غرباً الساحل من الكرمل إلى يافا، وشرقاً شرقي الاردن . واتخذت عاصمة لها سيخام . اما مملكة يهوذا فقد حدّها من الغرب فلسطين ، ومن الشرق البحر الميت ومن الجنوب قادش — برنيا، وابقت على أورشليم عاصمة لها . وحافظت مملكة يهوذا على عبادتها ليهوه بينما راح يربعام يقدم الذبائح لآلهة الكنعانيين. انقلب الانقسام ناجزاً؛ وستكون اولى نتائجه ضعف المملكتين اللتين سوف ينقلب خلافهما السبب المباشر لضياعهما واندثارهما .

وعرفت فينيقيا ازدهاراً لا بأس به عندما كانت اسرائيل في أوج مجدها . ولكن اوغاريت لا تزال تعاني من غزوة شعوب البحر . وبدأت مدن الجنوب ترفض الحماية المصرية حتّى إن مبعوث الفرعون إلى جبيل لاقى الواناً من التحقير عندما ارسله سيده ليطلب الخشب كما كان يحدث في ماضي الايام . واستطاعت صور، رغم القرصنة، ان تقيم لها اسواقاً تجارية مزدهرة في منفيس وقبرص وكيليكيا وكريت ومالطة وصقلية حيث اكتشفت نقوش فينيقية ؛ حتّى ان السفن الفينيقية بلغت، في تجارتها، مضيق جبل طارق .

وعادت مصر إلى فرض نوع من السيطرة على فينيقيا، سيطرة اسمية، في القرن اللاحق . وقدمت جبيل التماثيل والهدايا لفراعنة مصر . ونتج عن ذلك ايضاً احتلال مصر لأورشليم ، بمساعدة الملك يربعام . وبدأت ، من ثم ، الاعتراكات الضارية بين اسرائيل ويهوذا التي افادت من نزاع اسرائيل مع جيرانها الفلسطينيين . وكانت نهاية كل ذلك أن تولّى الجنرال اومري (٨٨٥) الملك، ونقل العاصمة إلى السامرة .

واذا انتقلنا نحو الشرق، وغادرنا الارض السورية، الفينا امامنا الممالك الارامية : حماه ، دمشق ، سامال ،

وهي ممالك انتقلت رويداً رويداً من الطور البدوي إلى الطور الحضاري .

٢ – اشور وبابل .

كان وجه اشور المشع ، خلال القرن التاسع ، الملك اسورنازربال الثاني (٨٨٤ – ٨٦٤) الذي استطاع ان يكبح جماح الثوارت كلها . اما خليفته شلمنصّر الثالث فقد نسج على غرار سلفه وامتدت حدود سلطانه في القرن الثامن حتى حلب . وحاربته جيوش تجمعت من دمشق وحماه وكيليكيا وفينيقيا واسرائيل ، والتحمت معه في معركة قرقر على ضفاف العاصي في سنة ٨٥٣ . وحصل زواج ، في هذه الفترة ، بين اسرة اومري الاسرائيلية وملك صور ؛ فقد اقترن ابن الملك احاب بإيزابيل الصورية (أواسط القرن التاسع) . فسعت ايزابيل إلى بعث العبادات الوثنية في اسرائيل بان قربت المحرقات لآلهة الكنعانيين مما اثار سخط كهنة يهوه ، إله اسرائيل .

ولكن اسرائيل بدأت تشعر بقوة عدوها اشور . فعمتها ، من ثم ، الفتن والثورات ، فكان من نتائجها قتل ايزابيل واحفاد آحاب . فتولت ، اذ ذاك ، السلطة آتاليا ، ابنة ايزابيل ، ولكنها قتلت على يد الكاهن الاعظم .

وافادت اشور من تلك الخضات ووجدت السبيل مفتوحاً للتدخل. ولكن الملك سمسي ــ آداد (٨٢٤ ــ ٨١٠) فضل سلوك نهج التريث بسبب انشغاله بخنق دسائس بابل والمناطق الداخلية حتى الخليج الفارسي. ولا فارق بين ملكه وملك الذين سبقوه لولا شهرة زوجته سمورامات التي خلفته بعد موته وتمكنت من الحكم مدة خمس سنوات. ومن الجائز ان تكون اسطورة سميراميس قد نسجت خيوطها في فترة ملك سمورامات.

وتابعت أشور تقدمها رغم بعض مظاهر الانحطاط. وتمكن الملك تغلتفلصّر من الاستيلاء على عرش بابل (٧٢٩) مع محافظته على مناعة عرش اشور.

٣ ــ سلالة السرجونيين.

وهكذا نبلغ عهد السلالة التي تمثل اجدر تمثيل عظمة أشور وازدهار نينوى، وهي السلالة السرجونية التي أسسها سرجون الثاني (٧٢٢ ــ ٧٠٥)؛ وعلينا ان نذكر أيضاً، انصافاً للتاريخ، سرجون القديم، عاهل سلالة الأكاديين وسرجون الاول الاشوري الذي عاش في فترة الجالية الكبادوكية. ونلمس لمس اليد، مع ملوك هذه السلالة، اوج عظمة اشور وبدء انحطاطها.

وخلف سرجون، ابن تغلتفلصّر الثالث (٧٤٥ – ٧٢٨) اخاه شلمنصّر الخامس (٧١٨ – ٧٢٢) . وكان ملكه وملك امراء سلالته نموذجاً عن شكل الحكم الذي نجده على مدى التاريخ الشرقي . فعند كل قيام ملك جديد، لا بدّ له من التعرض لمخاصمة ومنازعة المغتصبين، والتصدي، في الوقت نفسه ، لقمع ثورات المتمردين . ولا مجال لاي تقدم الا عندما تسوّى المشاكل ويعم الامن جنبات البلاد وتسيطر الطمأنينة في الاجواء .

الثورة تخض بابل في كل مكان، ومصر تسعى جاهدة إلى خلق المشاكل وافتعال الازمات في فلسطين . ولم يلبث سرجون حتى ارجع الهدوء إلى البلاد وانهى بانتصار باهر عام ٧٢٢ ، حصار السامرة الذي باشره سلفه ؛ فجلا اغلب السكان، وفرض حاكما على من بقي في السامرة ؛ وامحت بذلك اسرائيل من الخارطة . ثم حمل سرجون، سنة ٧٢٠، على التحالف السوري وضم إلى سلطانه مدينة حماه ؛ وفي عام ٧١٨ اعاد الطمأنينة والنظام إلى ربوع جبال طوروس؛ وفي عام ٧١٧ استولى على قرقميش ومن ثم توجه صوب منطقة الاورارتو واحتل عاصمتها موزيستير . وقفل راجعاً نحو الغرب حتى مشارف جزيرة قبرص ؛ ولم يفته ان يفرض سلطانه ، خلال عودته ، على مقاطعة ميليتانيا .

وقام سرجون ايضاً بحمـــلات نصر وفوز ضد السيتيين والسيمريين (٧٢٠) . وحالما استوثق من امتـــلاك واستتباب النظام في ربوع سوريا العليا وبلاد كنعان ، استدار نحو بابل التي لا تزال تشق عصا الطاعة وتغلي بالثورات منذ بداية ملكه . وسرعان ما احتل بابل وارغم ملكها على الفرار إلى بلاد العيلانيين . ولم ينس سرجون، طيلة فترة حكمه المليئة بكل عظيم كبير من الاعمال، ان يشيد قصر خورساباد الشهير الذي تفصله عن نينوى مسافة سبعة عشر كيلومتراً لا غير؛ ويعود الفضل الاول في اكتشاف آثار ذلك القصر الشهير إلى علماء الآثار الفرنسيين منذ سنة ١٨٤٢، ويحتوي متحف اللوفر اجمل النماذج عن الفن الذي كان يزين قصر سرجون . وكان العاهل السرجوني قد باشر بناء مدينة حديثة إلى جانب القصر ولكن المنية كانت له بالمرصاد ، فمات قبل ان يستطيع ابراز تلك المدينة إلى الوجود .

وتحتم على الملك سنحريب (٧٠٥ – ٦٨١) ان يجابه في بدء فترة حكمه ضبط القلاقل والمنازعات العادية (الاراميون، الكثيون) وان يعد العدة للإستلاء على بابل من جديد . وكانت قد شرعت في التأهب لتأليب القوى المتناثرة وتوحيدها للقيام بحملة ضد الساحل، ولكن سنحريب كان

اسرع من البرق في خنق الانفاس المصرية ولم يلبث حتّى اعاد الامن والسلام إلى الربوع . وعكف حالاً على بناء اسطول بحري في تل — برسيب وفي نينوى ؛ ولكن السفن افتقرت إلى الصمود والقوة مما جعلها لا تفي بالمراد ولا تقوم بما توسم فيها الملك من اعمال جسام ؛ لذلك لم تكن نتيجة الحملة التي استهدفت الساحل العيلاني ذات نتائج مرضية ؛ وخيم على معركة هلوليه التّردد والغموض . انذاك عاد سنحريب إلى سلوك السبيل (٦٨٩) التي تبدأ من الغرب وسرعان ما ضرب حصاراً لاحماً حول لاشيس في فلسطين ؛ ولكن الطاعون استطال على جيشه فاباده شر ابادة ؛ ولم يعمّ الملك حتّى إغتيل .

وخلفه اسرحدون (٦٨٠ — ٦٦٩) الذي وجد من اولى واجباته ان يعيد مرؤوسيه إلى الهدوء وإلى تلبية اوامره والاعتصام بطاعته ، ولكنه بدل ان يجيش كل قواه في سبيل اخضاع رعيته وبعث السلام في ربوع مملكته ، نراه يؤلب قواه جميعها للقيام بحملة ماحقة ضد مصر التي ما فتئت مبعثاً لكل عوامل التمرد ومنطلقاً لكل الثورات منذ اجيال كثيرة او بالتأكيد منذ أن تولت السلالة السرجونية مقدرات الحكم ومقاليد السلطان . فدمّر صيدون ، في طريقه إلى محاربة مصر ، دون ان تنسى جيوشه ، احراق مدينة صور ؛

ثم وثّق علاقات الصداقة والتحالف مع الشعوب العربية واستولى على مصر في سنة ٦٧٥؛ ولكنه ارغم على الجلاء عنها بعد عامين اي سنة ٦٧٣؛ وحينذاك حان دور الماديين لمقارعته ومنابذته، وسرعان ما تمكن من التغلب عليهم والتنكيل بهم بقساوة وصرامة؛ وتململت صور، انذاك، مفهرع إلى خضد شوكتها وتلقينها درساً قاسياً جداً؛ ومن ثم عاود الكرة على مصر فدخلها دخول الظافرين المنتصرين (٦٧١) وبلغ به المطاف إلى مدينة منفيس بعد ان غادرها الفرعون هارباً نحو الجنوب. وهب اسرحدون يقتص من مصر شر اقتصاص فجعل منها ولاية تابعة له؛ ولكنه حالما غادرها، سارع المصريون إلى حطم النير الاشوري، وتنادوا من كل صوب لتوحيد صفوفهم والتماسك في وجه الغازي الدخيل. وكانت الاقدار لأسرحدون بالمرصاد فوافته المنية وهو يعد العدة للقيام بحملة جديدة ضد مصر.

وخلف اسرحدون ولده الاوسط اسوربانيبال (٦٦٨ — ٦٢٦)؛ وتتوج ولده البكر شماس — شوم — أوكين، ملكاً على بابل؛ وهكذا ولد ذلك التنافس عداوة وخصومة بين الشقيقين، رغم ان العداوة بقيت بطيئة العواقب الوخيمة. وراح الملك الجديد يحضر للقيام بغزوة جديدة ضد مصر، ولم يطل الوقت حتى دخلت جيوشه مصر وهرب الملك تاركاً

المملكة فريسة سائغة لأعدائه ؛ ووصل الاشوريون، هذه المرة إلى مشارف مدينة ثيبا، متوكئين على دعم اكيد من امراء الدلتا . وتبدت ثيبا ، في البداية ، طيعة مسالمة، ولما حاولت الانتفاض وكسر النير كان التنكيل الصارم جزاءها . ولكن بابل التي ساعدها اسوربانيبال في مقارعة العيلاميين ، راحت تتأهب ، في الخفاء، للقيام بحملة ؛ فكانت اشور لها بالمرصاد، فانتصرت عليها واقتصت منها بفظاعة وقسوة وبربرية . ومات ملك بابل وهو فريسة النيران التي احرقت قصره سنة ٦٦٨ (ومن هنا ينطلق اساس اسطورة سردانابال). واستباحت الجيوش الاشورية ايضاً بلاد العيلام عام ٦٤٠ . وشاهدت شوشان تدنيس هياكلها وتدميرها، وانتهاك حرمات قبور ملوكها، واستلاب تماثيل آلهتها .

وعندما مات اسور بانيبال (٦٢٦) كان الماديون قد باشروا شن الحملات والهجمات المركزة ضد اشور ؛ لقد دقت ساعة الثأر . واستولى البابليون والماديون، رويداً رويداً ، بقيادة نابوبولصر (٦٢٦ ــ ٦٠٥) على اشور التي دمرت عاصمتها نينوى عام ٦١٢ ؛ وهكذا اصبحت الامبراطورية الاشورية مقسمة بين الماديين الذين تقدموا حتى مشارف آسيا الصغرى، وبين البابليين .

٤ ــ الامبراطورية البابلية .

لم تشأ الاقدار أن تطيل في عمر الامبراطورية البابلية الجديدة رغم وساعة السيطرة التي نعمت بها وجامع النفوذ الذي غنمته في برهة وجيزة من الزمن . ولا شك ان أعظم عاهل عرفته الامبراطورية البابلية هو نبوخذنصّر الثاني (٦٠٥ ــ ٥٦٢) الذي لمع اسمه بعد ان جدد بناء بابل وجملها وشيد الهياكل الكثيرة واضفى عليها الابهة والرواء .

وحالما تخلصت مصر من الاشوريين رجعت إلى حبك الدسائس والمؤامرات ، ووجدت في يواكيم ملك يهوذا رفداً لها ومؤيداً ؛ ولكن الملك اليهودي سرعان ما قتل وهزم ولده من بعده ؛ ورغم تبدل الملك وانذارات النبي إرميا لم تتقاعس اسرائيل عن منابذة بابل ومحاربتها ، ولم تخفِ حنينها المتتابع إلى الاخذ بعبادات الكنعانيين واقامة شعائرهم الدينية . فطفح الكيل عند الملك نبوخذنصّر ازاء كل ذلك ، فأمر بجلاء اغلب السكان (٥٨٧) ؛ فكانت ، من ثم ، بداية « الجلاء الكبير » .

وتعرض خلفاء الملك نبوخذنصّر لنفس المشاكل والصعوبات التي كانت تتوالى وتتفاقم يوماً بعد يوم . فقد سارع قورش ،

ملك ازنان، إلى حمل لواء الثورة . وحالفه النجاح فباشر في ترسيخ دعائم سلطانه في آسيا الصغرى . وفي سنة ٥٣٩، حالفة الحظ فتمكن من اجتياح الامبراطورية البابلية، حليفه القديمة ؛ ودخل إلى بابل مظفراً . وهكذا اصبحنا على قيد شبر من ولادة امبراطورية جديدة .

٥ — الامبراطورية الفارسية .

تبع قورش (٥٣٩ — ٥٢٩) عاهل اوسع امبراطورية عرفت حتى الآن اساليب سياسية جديدة ؛ فقد سعى إلى كسب رضى الشعوب التي غزاها دونما اي لجوء إلى العنف والكبت . واتاح لليهود مجال الرجوع إلى اورشليم وافسح امامهم سبيل اعادة بناء الهيكل. واتخذت الامبراطورية الجديدة لها عاصمتين، شوشان في بلاد ازنان القديمة التي تحدّر منها قورش، وبابل ثم برسيبوليس بعد البازاركاد . ومات الملك قورش في سنة ٥٢٩ وهو على رأس حملة يقودها ضد البرتيين .

وخلفه ولده قمبيز (٥٢٩ — ٥٢٢) ؛ وللحال عاوده الحلم الاشوري باحتلال مصر ؛ واعتلن ملكاً متخذاً له لقباً مصرياً وامتد سلطانه حتى البعيد البعيد . وفي ذلـــك

الوقت ادعى احد المجوس المدعو غوماتا بانه شقيق قمبيز الذي اغتاله الملك خفية ؛ ومات قمبيز ، حينذاك ، وهو راجع ، على جناح السرعة ، إلى عاصمة مملكته .

وما عتّم المجوسي غوماتا حتّى قُتِل على اثر دسيسة حبك خيوطها الاعيان والنبلاء الذين كان داريوس في عدادهم . ولم يطل الوقت حتّى استلم داريوس مقاليد السلطان (٤٢١ — ٤٨٥) . ومضت على العاهل لإعادة الاستقرار والطمأنينة إلى جنبات مملكته سنة كاملة ، بذل خلالها اقصى الجهود ، . ولم يفته ان يثبت في مصر دعائم سلطاته ناهجاً سبل العطف واللين منكبّا عن القسوة والصرامة ؛ حتّى ان نفوذه امتد امتداداً لا مثيل له ، فبلغ مشارف الهند ، ودحر سنة ٥١٢ فلول المناوئين في حملة جبارة استهدف بها اليونان (الحروب المادية) ولكنه غاب على امره في معركة ماراتون (٤٩٠) . وترك ، من ثم ، امبراطورية شاسعة الاطراف مؤلفة من عشرين ولاية كبيرة ، تجبى الضرائب منها كلها بدقة ونظام ويسودها الأمن والازدهار .

وعقب داريوس في الحكم أحشويروش الاول (٤٨٥ — ٤٦٤) الذي هزمه اليونانيون بشدة في معركة سلامين (٤٨٠) .

ثم تولى الحكم ارتحششتا الاول (٤٦٤ – ٤٢٤) الذي وقع معاهدة صلح مع اليونان في سنة ٤٤٩ ؛ وكلاهما مع خلفائهما سوف يصادفون التمرد والثورة واختصامات البلاط العادية . وتوجب على ارتحششتا الثاني ، في بداية حكمه ، ان يتصدى ، دونما هوادة ، لمجابهة شقيقه قورش الذي وجد في فئات المرتزقة المساعد الاكيد . ولكن الملك استطاع ان ينتصر . وقدّر لحشود المرتزقة ان تصل إلى اليونان رغم الجهود والمصاعب والمشقات (تراجع العشرة الاف)؛ واخيراً كان على داريوس الثالث (٣٣٠) ان يجابه الاسكندر المقدوني . وبعد معركتي ايسوس (٣٣٤) واربيل (٣٣١) هزمت فارس واضحت لعبة بين يدي الاسكندر، القائد الجبار المظفّر . وعندما سيموت الاسكندر في بابل عام ٣٢٣ يكون قد مضى عامان على اندثار الامبراطورية الفارسية؛ ولكن حلم مزج الشرق والغرب الذي راود الاسكندر زمناً طويلاً لن يتحقق ابداً .

وهكذا اضحت مدن الشرق الشهيرة مجرد احلام وذكريات. تهدمت نينوى عام ٦١٢ ولم يبق منها أي اثر عندما جاب المؤرخ هيرودوت المنطقة سنة ٦١٢ . ولكن بابل بقيت على

شيء من الحياة بعد أن خسرت سالف مكانتها وازدهارها ونازعتها النفوذ عواصم جديدة . اما برسيبوليس وشوشان فقد احرقهما الاسكندر المنتصر بعد ان قدمتا له ثروات لا تحصى ولا توصف .

خاتمة

لا شك ان الشرق الادنى القديم يقدم لنا درساً وافياً نستطيع على ضوئه التعرف على حضارة قيمة منذ ولادتها حتى زوالها. فنحن لسنا، في البداية، امام دول بالمعنى الحقيقي، بل امام مجموعات من البشر، تجتاز مرحلة الحياة البدائية إلى نوع من التعايش المنظم؛ ولكل مجموعة مدنها المتميزة وطقوس عباداتها واساليبها السياسية. ثم رفد الحظ، بضعة من تلك المدن فضمت حولها قبائل كثيرة كانت النواة الاولى لقيام الامبراطورية.

ونجد ايضاً في الشرق القديم فائدة اخرى: فمدنيتنا الغربية مدينة له بالكثير الكثير. ونحن مدينون خصوصاً لمصر التي لقحت بحضارتها مدنياتنا جميعها. ثم ان تأثير الفن السوري لعب دوراً مهماً جداً، في الغرب، خصوصاً في النصف الاول من الالف الاول قبل الميلاد. ونحن مدينون للشرق بذلك العون الضخم الجبار الذي نفحنا به في كل ما يتعلق بالطيب وعلم الفلك والرياضيات.

وقد تم ذلك التلاقح بحراً على يد الفينيقيين وبراً بطريق آسيا الصغرى وبواسطة الجاليات اليونانية الاسيوية .

لذلك لا يجب علينا ان نرى في الشرق الادنى القديم عالماً مغلقاً غامضاً بل علينا ان نعتبره الحلقة الاساسية والاولى في تلك السلسلة التي تتألف منها الحضارات المتتابعة منذ فجر التاريخ حتى ايامنا الحاضرة .

فهرس

17

